تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

سورة يوسف وسورة الرعد

وسورة إبراهيم

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

16 ربيع الثاني 1448 الموافق 27 سبتمبر 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ...." . . . . **الصفحة**.

سور يوسف 4

سورة الرعد..... 60

سورة إبراهيم.. 92

المراجع 120

سورة يوسف

مقدمة

القصص في القرآن ليست عملاً فنيّاً مستقلاً، في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه – كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة، التي ترمي إلى إدارة غرض فني طليق – إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية. والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء؛ والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة والنعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصلها والأمثال التي يضربها. . إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات.

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينية، وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات معينة، ولكن هذا الخضوع لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها، ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير، وهي التصوير[1].

تسمية السورة

(سورة يوسف) هو الاسم التوقيفي المعروف في المصاحف وكتب التفسير، بيد أن هناك من يطلق عليها اسما اجتهاديا (أحسن القصص) وذلك لقول الله تعالى في الآية الثالثة منها (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن).

وهي سورة مكية نزلت في الفترة الحرجة من العهد المكي (قبل الهجرة النبوية) وتحديداً في "عام الحزن" بعد وفاة خديجة وأبي طالب لتواسي النبي ﷺ.

جاء في موقع الإسلام سؤال وجواب: لم يرد بالأحاديث نص صحيح يشير إلى أسماء لسورة يوسف ولم يرد عن الصحابة والتابعين اسم آخر لسورة يوسف وتُعرف باسمها الوحيد سورة يوسف وسميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة سيدنا يوسف – عليه السلام– فقد ذُكرت القصة بالتفصيل في السورة.

وسورة يوسف من السور المكية بالإجماع، وقيل أن أول ثلاث آيات مدنية، وترتيبها في القرآن الكريم الثانية عشرَ وهي في الجزء الثاني عشر، نزلت ما بين عام

([1]) – انظر سيد قطب: التصوير الفني في القرآن (ص143).

الحزن وبيعة العقبة الأولى عند اشتداد الأذى من المشركين للنبي –صلى الله عليه وسلم–، نزلت تصبيراً له وإخباره أن الفرج والنصر والتمكين سيكون بعد الضعف، وعدد آياتها مئة وإحدى عشرة آية.

وقد وجد الخلاف في عد آياتها، كما هو العادة في عد فواتح السور آية مستقلة أو حسابها مع غيرها، وغير ذلك من الاعتبارات في عد الفواصل، ففي العد الكوفي هي 111 آية، وفي العد البصري 112، وفي العد المدني 110.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (5) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ(14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ((15)

هذه الآياتُ الكريمةُ في هذا الدرس الأول من سورة «يوسف» عليه السلام هي ديباجة السورة والمقدّمةَ التأسيسيّةَ لأحسنِ القَصَصِ في القرآن الكريم؛ قَصّةٌ صيغَتْ بأسلوبٍ بليغٍ مُعْجِز، يتشابَكُ فيهِ البُعْدُ اللسانيُّ معَ المَلْمَحِ البلاغيّ والتركيبيّ، ويَتَساوَقُ معَ اللطائفِ السياقيةِ والأُسلوبيةِ التي اسْتَلْهَمَ أسرارَها أساطينُ التفسيرِ والتدبّر.

*﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: ﴿الر﴾: الحروف المقطعة عموماً في بدايات السورة للتنبيه وإظهار إعجاز القرآن المكوّن من هذه الحروف المفردة المألوفة لديهم والتي يعجز العرب عن صياغة مثل نظمه بها.

اسم الإشارة للبعيد ﴿تِلْكَ﴾: يُفيد التعميم وعُلُوّ مكانة الآيات؛ فالآيات القريبة تلاوةً وسماعاً، جُعلت بعيدةَ المنزلة والرفعة.

﴿الْمُبِينِ﴾: اسم فاعل من "أبان" المتعدي أو "بان" اللازم، أَيِ: الْبَيِّنُ حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ، وَحُدُودُهُ وَأَحْكَامُهُ. قَالَ قَتَادَةُ: مُبِينٌ –وَاللَّهِ–بَرَكَتُهُ وَهُدَاهُ وَرُشْدُهُ، فَهَذَا مِنْ "بَانَ" اللازم، أَيْ: ظَهَرَ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مُبَيِّنٌ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْحَلَّالَ مِنَ الْحَرَامِ، فَهَذَا مِنْ "أَبَانَ" المتعدي، بِمَعْنَى أَظْهَرَ[1].

*﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: هذه الآية قريبة في معناها من قول الله تعالى في سورة الأنبياء ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:10]، وقد ختم الله الآيتين بقوله (تعقلون)، ففيهما امتنان من الله على هذه الأمة بإنزال القرآن عليهم بلغتهم التي يتفاخرون بها، فيسمّون أنفسهم عرباً، وهي كلمة لا يخفى ما توحيه من الجمال، كما في قوله تعالى عن نساء الجنة (عُرُبًا أَتْرَابًا) [الواقعة:37]، ويسمّون من سواهم عجماً، وأنباط وغير ذلك، فالقرآن شرف لمن آمن به، والتعليل الحضّي

(1) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص574).

(لعلكم) للتحريك العقلي، وللامتنان، فالله يمتن على قريش والعرب بأنه أنزل عليهم بلغتهم هذا الكتاب الذي فيه عزهم وشرفهم، ومجدهم ومجد لغتهم [1].

تأكيد الجملة بـ ﴿إِنَّا﴾: ونسبة الإنزال إلى نون العظمة الإلهية لبيان كرم القرآن وشرفه، فهو كلام الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، كما أنّ توصيفه بـ ﴿عَرَبِيًّا﴾: يُفيد الإبانة الكاملة؛ فاللسان العربي أوسع الألسنة دلالةً وأقدرُها على حمل معاني النبوة والدقائق التربوية.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تدركون أنّ هذه الكلمات والأحرف المتداولة التي اعتدتم عليها هي هنا دليل على أنّ هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون الذي قاله بشراً، بل لا بد عقلاً أن يكون القرآن وحياً منزلا، والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة[2].

وهذا يؤكد مكية سورة يوسف، فموضوع السورة الرئيسي ككل هـ موضوع السور المكية كلها – على وجه التقريب – هو العقيدة وقضاياها؛ توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعاً. ومن ثم قضية الوحي وفضية البعث . . وما إليها. وإنّما الذي يختلف من سورة إلى سورة في القرآن المكي إنما يكون في عرضها لقضية العقيدة، إنما هو طريقة العرض. فهذه السورة – سورة يوسف – تعرض قضية العقيدة والوحي في أسلوب قصصي قرآني جميل رائع، من خلال قصة يوسف وما فيها من عجائب هي براهين هذه القضايا وآياتها في الإدراك البشري البصير المفتوح [3].

*﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾: إسناد القصّ للضمير المنفصل (نَحْنُ) يُفيد القصر والاختصاص؛ أي: لا أحد يقصّ مثل هذا القصص الحقّ إلاّ الله.

---

(1) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص763).
(2) – انظر سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص1970).
(3) – انظر سيد قطب: في ظلال القرآن (ص4/ 2039 - 2040).

التعبير بالمصدر (الْقَصَصِ) وتوصيفه بـ {أَحْسَنَ} يشمل التفضيل في الأسلوب، والمضمون، والغرض التربوي.

أمّا تسميتها بـ "أحسن القصص": أو دخولها في مسمى "أحسن القصص" فلأنها جَمَعَت المُلْكَ والعِفّة، والحَسَدَ والعَفْوَ، والفتنةَ والنصر، والابتلاءَ والتمكين، والرؤيا وتعبيرَها.

فمنذ أن تبدأ تسير مفصلة حتى تنتهي، فما يقع ليوسف من رؤيا، ثم ما له يقع من إخوته، وما يحدث له في مصر بعد شرائه وتربيته، ومراودة امرأة العزيز له، وسجنه، وتعبيره رؤيا خادمي الملك، ثم تعبيره رؤيا الملك، وخروجه من السجن، وولايته على خزائن الأرض (وزارتي المالية والتموين) ومجيء إخوته ودعوتهم، ومجيء أخيه، وعودة إخوته لأبيهم بدونه، وكمال القصة بقدوم أبيه وأهله، كلها تفصل تفصيلاً دقيقاً لإثبات الوحي والرسالة أولاً، ولأن لهذه التفصيلات قيمتها الدينية في القصة [1].

قوله ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾: الغفلة هنا بمعنى عدم العلم السابق بهذه التفاصيل الدقيقة، وفيها امتنانٌ بالنبوة وإثباتٌ قاطع لإعجاز الوحي ومصدره الإلهي.

*﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، هكذا بدأت القصة برؤيا يوسف عليه السلام، كما ختمت بتحقق هذه الرؤيا، وسجود إخوته له وأبويه، ولم يخط خطوة وراء هذا كما فعلت التوراة، لأن الغرض الديني قد تحقق، وتحقق معه للقصة أجمل ختام.

فهذه الآية تبدأ بعاقبة القصة ومغزاها، ثم ستبدأ القصة من أولها وتسير بتفصيل خطواتها. وهذا أحد طرائق القرآن الأربع في عرض القصة[2].

النداء بـ (يَا أَبَتِ): بالتاء المكسورة عوضاً عن ياء المتكلم، وهي صيغة تُفيد النعومة والتودد والأدب الرفيع في خطاب الآباء، ولعلها من الجوانب التي أحسن يوسف

---

(1) – انظر سيد قطب: التصوير الفني في القرآن (ص166).
(2) – انظر المصدر السابق (ص180).

عليه السلام فيها، وأراد القرآن التنبيه إليها في مخاطبة المرء أبويه، فقد وصف يوسف السلام في هذه السورة مراراً أنه من المحسنين.

تكرار الفعل (رَأَيْتُ)، (رَأَيْتُهُمْ): للتأكيد، وللتنويه بعَظَمَة المَشْهَد وغرابتِهِ في نفس الطفل، وللفصل بين أجزاء الرؤيا وبين هيئتها العجيبة (السجود).

إشراقة بلاغية: جمع المذكر السالم للعاقل (سَاجِدِينَ)، بدل جمع التكسير (ساجدة) في وصف الكواكب والشمس والقمر: تنزيلٌ لغير العاقل منزلة العاقل؛ يلمح فيها إشارة إلى أنّ يوسف عليه السلام قد وقع في نفسه شيئٌ من عظمة ما ترمي إليه رؤياه ربما من غير تفصيل لصغر سنة، وإنما أراد أن يبشر أباه، ويتأكد من صحة ما وقع في نفسه من تأويل.

*﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾:

التصغير في (يَا بُنَيَّ): تصغير شفقة ومحبة وترفق، يرسخ دور الأب الحاني والموجه الناصح.

تأكيد الفعل بالمصدر (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا): لإظهار خطورة الكيد وعِظَم الاحتيال المتوقع إن علموا بالرؤيا.

فَهِمَ يعقوبُ عليه السلام إذن أنّ في الرؤيا فيها تعظيمٌ ليوسف عليهم جميعاً السلام، وخَشِيَ حَسَدَ النفوس البشرية؛ ف الحسد قد يتسرب حتى بين أبناء البيت الواحد إذا ظهرت دلائل التفضيل الإلهي.

قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد: أيحسد المؤمن؟ قال: لا أم لك، أنسيت أخوة يوسف [1].

قال الناظم:

([1]) – انظر ابن عبد البر: بهجة المجالس (ج1/ص407).

اصبر على كيد الحسود

فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها

إن لم تج ما تأكله

علّل النهي بقوله: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ): تحويلٌ للّائحة واللائمة من الإخوة إلى العدو الأصلي (الشيطان) حمايةً لقلب يوسف من البغضاء مبكراً، وهي لمحة تربوية ونفسية راقية جداً،

وسوف يتبين أثرها التربوية في نفسية يوسف في آخر السورة (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [يوسف:100].

*﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَجْتَبِيكَ ربك﴾: الاجتباء هو الاستخلاص والاصطفاء، يقول يعقوب لابنه عليهما السلام: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصطفيك ربك،

﴿ويعلمك مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: يريد تعبير الرؤيا، سُمّي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، والتأويل هو ما يؤول إلى عاقبة الأمر. وأتى بـ "مِن" التبعيضية ليدلل على اتساع علم الله، وأنّ ما يعلمه الإنسان هو جزءٌ من علم علام الغيوب، وتأويل الأحاديث يشمل تعبير الرؤى وفهم كُنْهِ الأمور ومآلاتها.

﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ﴾: قيل: إتمام النعمة على إبراهيم عليه السلام هي الخُلة، كما في قوله تعالى (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) [النساء:125]،

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر بضم أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير[1].

وقد اتخذ الله نبينا صلى الله عليه وسلم خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو كُنْتُ متَّخِذًا خليلًا لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلًا ولكنَّه أخي وصاحبي وقد اتَّخَذ اللهُ صاحبَكم خليلًا[2].

ختام الآية باسمي ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: تناسبٌ بديع؛ فالعلم يناسب الاصطفاء وتأويل الأحاديث، والحكمة تناسب وضع النعم والفضل في أهله ومواضعه المناسبة.

۞﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾، أي: في خبره وخبر إخوته، ﴿آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾: وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقِيلَ: سَأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ انْتِقَالِ وَلَدِ يَعْقُوبَ مِنْ كَنْعَانَ إِلَى مِصْرَ. فَذَكَرَ لَهُمْ قِصَّةَ يُوسُفَ، فَوَجَدُوهَا مُوَافِقَةً لِمَا فِي التَّوْرَاةِ [فَتَعَجَّبُوا مِنْهَا]، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [أَيْ: دَلَالَةٌ عَلَى نُبُوَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [3]..

إشراقة بلاغية: الافتتاح باللام الموطئة للقسم و"قد" (لَّقَدْ كَانَ) للتحقيق والاهتمام بالخبر، كما أنّ تنكير (آيَاتٌ): للتعظيم والتكثير؛ أي عبرٌ وعلاماتٌ ودلائلُ كثيرةٌ جداً على قدرة الله ولطفه وتدبيره.

۞﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾،

اللام في (لَيُوسُفُ) موطئة للقسم، وتقديره: والله ليوسف، لتأكيد حسدهم وتركيزهم على الشخص المشار إليه.

الجملة الاسمية (وَنَحْنُ عُصْبَةٌ): جملة حالية؛ والعُصبةُ الجماعة القوية المتماسكة (من 10 إلى 40)، يستدلون بقوتهم العددية على استحقاق المحبة!

---

(1) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص575).
(2) – أخرجه مسلم (2383).
(3) – انظر المصدر السابق.

(إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ): الضلّال هنا ليس ضلال الدين، بل ضلال الرأي والتصرف في المحبة بزعمهم. وهذا يتسق مع المقياس المادي العصبي للإخوة (المنفعة والنعرة العددية) في مقابل المقياس الروحي ليعقوب (الذي يتلمس في يوسف النبوة والنقاء).

*(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ).

الجزم في جَواب الأمر (يَخْلُ): ينطوي على ترتيب النتيجة المستهدفة بسلاسة ووعْدٍ زائف في مخيلتهم (تفرّدُ محبة الأب).

على أنّ محبة يعقوب ليوسف وأخيه هي محبة جبلية لا يؤاخذ عليه الإنسان، فقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يحب عائشة أكثر من بقية نسائه، ولهذا جعلت سودة رضي الله عنها يومها لعائشة، ولهذا استأذن أن يمرض في مرض موته عليه السلام في بيت عائشة،

عن عائشة رضي الله عنها: أنه صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك [1].

قال في الدرر السنية: وفيه دليل على أنّه لا حرج على من كان عنده جماعة نسوة في إيثار بعضهن في المحبة على بعض إذا سوى بينهن في القسمة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله رضي الله عنه: قالت امرأة بشير: أنحل ابني غلاماً، وأشهد لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي، وقالت: أشهد لي رسول الله صلى

(1) – صحيح أخرجه أبو داود (2134)، والترمذي (1140)، والدارمي (2253) جميعاً بلفظه.

الله عليه وسلم، فقال: ألله إخوة؟ قال: نعم. قال: أفكلهم أعطيت مثل ما أعطيته؟ قال: لا. قال: فليس يصلح هذا. وإني لا أشهد إلاّ على حق[1].

تنكير (أَرْضًا): مبالغة في الإبعاد، أي أرضٍ نائيةٍ مجهولة تجعله يضيع ولا يعود، وقيل بأرض تأكله السباع.

(وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)؛ هذا هو التسويف الإبليسي الشهير واتباع لخطوات الشيطان (تزين الخطيئة بوعد التوبة العاجلة)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ) [النور:21].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾،

الغيابة: كل موضع ستر عنك الشيء وغيبة، والجب: البئر غير المطوية، لأنّه جُبّ أي: قُطع ولم يطو. (يلتقطه)، الالتقاط: أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه، يكون للشيء المفقود الساقط بلا طلب، والتعبير يصور يوسف كأنه متاع ضائع يأخذه المسافرون. (بعض السيارة) أي بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحوا مه.

رُسمت كلمة (غَيَابَت) بالتاء المفتوحة (المبسوطة) في سورة يوسف بالرسم العثماني لسببين رئيسيين عند علماء القراءات والرسم:

احتمال القراءات المتواترة (الإفراد والجمع):

أي لتتحمل قراءتين سبعيتين صحيحتين دون تغيير في شكل الحروف المستندة على المصحف الإمام؛ حيث قرأها عاصم بن أبي النجود وغيره بالإفراد (غَيَابَتِ الْجُبِّ)، وقرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو بصيغة الجمع المؤنث السالم (غَيَابَاتِ الْجُبِّ). فالتا المفتوحة صالحة وموافقة لكلا الرسمين واللفظين.

([1]) – هذه رواية مسلم (1624)، ومن رواية النعمان بن بشير نحوه رواه البخاري (2650)، ومسلم (1623) باختلاف يسير.

وأيضاً مراعاة لغات بعض قبائل العرب في الوقف: مراعاةً للغة من يقف على التاء المربوطة بالتاء صراحةً بدلاً من الهاء (وهي لغة شهيرة لبعض القبائل العربية مثل طيء وحِمْيَر)

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾: جملة شرطية، فيها تقليلٌ لرغبتهم في الأذى، ومحاولة لكسر حدة الشغف بالجريمة وعزل الدوافع القاتلة، وفيها تلميح إلى معارضته للفكرة، وأنهم إن خالفوه وأجمعوا أمرهم وكانوا فاعلين، فليبتعدوا عن جريمة القتل، وأبدأ لهم الحل الذي يراه هو الأمثل[1].

تنكير (قَائِلٌ): لإهمال اسمه لأن العبرة بموقفه وشخصه المتوازن نسبياً مقارنة بباقي إخوته (قيل: هو يهوذا أو روبيل كما ذكر المفسرون).

۞﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، قرئت (تَأْمَنَّا) بالإشمام أو الاختلاس/الروم)، وهو إشارة صوتية بالشفاه تُناسب مضمون الريبة والحذر والتحول المخفي في نياتهم.

جملة (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ): جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ) و(اللام)؛ وكثرة التأكيد هنا تثير الشبهة والريبة (كما قيل: كثرة التأكيد في غير موضعه تُورث الشك).

السؤال فيه استنكار ومحاولة لإحراج الأب (مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا)، لإظهار أن شكوك الأب غير مبررة ودفعه للاستسلام لطلبهم.

۞﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، الفعلان المضارعان المجزومان في جواب الطلب ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، يرتع من الرتع وهو الاتساع في الأكل والرعي والشبع، واللعب يستهدف حظوظ الصبا والطفولة.

مرة أخرى يكررون التأكيد المغلظ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، للتمويه على الخديعة وتسكين خوف الأب المحب لابنه الخائف من فقده وبعده.

([1]) – وانظر المصدر السابق (ص576).

۞﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾،

قدم يعقوب عليه السلام حزنه لفراقه ﴿لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾، والحزن هنا: ألم القلب بفراق المحبوب، ثم أردف بخوفه المادي ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾،

تقديم الجار والمجرور ﴿عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: للتنبيه على المظنة وهي غفلتهم واشتغالهم باللعب والرتع عنه.

قيل: لقّنهم يعقوب عليه السلامُ الحجة والعلة التي سيتذرعون بها لاحقاً دون أن يقصد! (الخوف من الذئب).

الفرق النفسي الكبير: الإخوة قالوا: (وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) اعتزازاً بالقوة، وليطمئن لها أبوهم عليه السلام، ويعقوب قال: (وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) حذرًا من ضعف البشر وسهوهم.

۞﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾: القسم المقدر الموطأ بـ اللام في (لَئِنْ) لإظهار الاستبعاد المطلق للحادث.

(إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ): استخدام "إذن" الجوابية للربط الشرطي المباشر، وتوصيف أنفسهم بالخسارة (أي العجز والضعف والذهاب الهيبة) إن وقع ذلك.

ردّوا على التهمة بمنطق القوة والمكانة، متجاهلين تحذيره من "الغفلة"، معتمدين على كثرتهم العددية.

۞﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

كتبت تا (غيابت الجب) مبسوطة أو مفتوحة مراعاة للقراءات، فقد قرأ بقض القراء مثل (نافع) بالجمع (غيابات) فرسمت في مصحف قراءة نافع بألف صغيرة على اليا، وقرئت في قراءة عاصم بالإفراد فكتبها الصحابة رضي الله عنهم مراعاة للقراءتين.

حذف جواب "لمّا" للإيجاز البلاغي والتهويل والإيجاز؛ والتقدير: (فلما ذهبوا به وأجمعوا على ذلك... فعلوه وظلموه).

(أَجْمَعُوا): الإجماع يدل على العزم المحكم والاتفاق بعد التردد واجتماع الآراء على الخديعة.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ): اللطف الإلهي والعناية المباشرة في لحظة الظلم والوحشة والظلمة في قعر البئر. تثبيتٌ لقلب الغلام الصغير وإيناسٌ لوحشته.

(لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ): بشارة وثقة بالمستقبل؛ أنه سيبقى حياً، وسيعلو شأنه، وسيخبرهم بهذه الفعلة وهم في موقف الضعف والجهل بشخصيته (وهو ما تحقق بالنص في آخر السورة عندما قال لهم: (هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ).

الخلاصة: تنساب هذه الآيات المباركة في منظومة بيانية تجمع بين إعجاز اللفظ وعمق وعبق اللطائف النفسية والتربوية، حيث تعكس الصراع الأبدي بين الحق والباطل، والحسد واللطف الإلهي، وتكشف كيف أن المكر البشري مهما أحكم خيوطه؛ فإن التدبير الإلهي يجري من حيث لا يشعرون، ليكون القعر الأعمق للبئر أول خطوة نحو عرش مصر.

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (18) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26)وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(29))

هذه الآيات العطرات في هذا الدرس من سورة يوسف، سورة "أحسن القصص". تجمع بين البيان القرآني، والإعجاز اللساني، والعمق السياقي.

۞﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: رجع الإخوة إلى أبيهم يعقوب عليه السلام وقت العشاء (وهو وقت الظلمة الذي يخفي الارتباك)، متكلفين البكاء والجزع استباقاً للأعذار وتغطيةً للجريمة. "تعمدوا هذا الوقت ليكون أقوى في تمويه الأمر لظلمة الليل، ولكي يتدبروا ما يلقونه إليه".

التعبير بـ "عِشَاءً" يدل على المكر والدهاء، حيث اختاروا وقت الهجوع والغبش. والجملة الفعلية "يَبْكُونَ" حالية تدل على التجدد والتكلف. "حركة تصويرية بارعة تجسد الموقف؛ الليل مرخٍ سدوله، والباب يطرق على الأب المكلوم، فإذا هم جماعة متباكون".

۞﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

ساقوا عذرهم الضعيف: انشغالهم بالمسابقة وتركه وحده عند المتاع، فافترسه الذئب. واستبقوا الإنكار بقولهم: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، وهي ذروة

البلاغة النفسية؛ لأنهم يدركون صدق فراسة أبيهم وأنهم كاذبون، فاستبقوا التهمة بالتسليم بانتفاء تصديقه لهم.

كما أنّ أسلوب النفي المؤكد بالباء في خبر ما ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾، يعكس شعور المذنب بالضعف أمام النور الرباني في قلب المؤمن. "أفصحوا بالاعتراف الضمني بأن قرائن الحال تدل على كذبهم، فاستبقوا التشكيك بتقرير الواقع بأسلوب حاسم".

*﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾،

إشراقة بلاغية: الدم على القميص هو الكذب الصارخ، وهو أسلوب قرآني رفيع، مثل قوله تعالى في ابن نوح عليه السلام (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ) [هود:46]، فلو أكله الذئب لمزق قميصه. واستقبل يعقوب – عليه السلام – النبأ لا بالتصديق بل بالوعي العميق: ﴿قال بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

إشراقة بلاغية: وصف الدم بـ بأنه (كذب) مبالغة بليغة، فالدم نفسه ناطق بكذبهم. وقوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ جملة اسمية حذفت مبتدؤها (صبري صبر جميل) أو أمر للنفس، وهو الصبر الذي لا شكوى فيه لغير الله، الخالي من الجزع السلبي.

يقول ابن القيم في مدارج السالكين: «فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: الصبر الجميل الذي لا شكوى معه، والصفح الجميل: الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: الذي لا أذى معه»[1].

*﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

(1) – ابن قيم الجوزية: «مدارج السالكين» (ج2/ ص460)، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية، 1441 هـ، 2019م..

نقلة مكانية وزمانية سريعة نحو الجب حيث ألقي يوسف. جاءت قافلة (سيارة)، وهم القوم المسافرين، سموا سيارة لأنهم يسيرون في الأرض فأرسلوا مستقيهم (الوارد) للماء، فلما أدلى دلوه تعلق به يوسف. استبشر الوارد أن وجد غلاماً نفيساً.

إشراقة بلاغية: كلمة (سَيَّارَةٌ) يوحي بالحركة والبركة الخفية في خضم المحنة، ووحشة الغابة ظلمة الجب.

﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ﴾، لما خرج من الجب إذا هو غلام أحسن ما يكون فاستبشر به الذي أخرجه، وفرح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه سلم قال: (أُعطِيَ يوسفُ شَطْرَ الحُسْنِ) [1].

قوله (وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) أي كتم السفرة أمر كونه حراً وباعوه كسلعة تجارية مخافة افتضاح أمرهم.

*﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: باعت القافلة يوسف بثمن بخس زهيد (دراهم معدودة محسوبة غير موزونة)، لزهدهم فيه وعدم معرفتهم بقيمته الحقيقية.

التنكير في (ثَمَنٍ بَخْسٍ) و (دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) للتحقير والقلة الشديدة، تناقضاً عظيماً مع شأن يوسف ومستقبله العظيم، "باعوه بيع من لا يرجو فيه خيراً، زهداً فيه واستعجالاً للتخلص منه".

*﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(1) – أخرجه أحمد (14050) واللفظ له، وأخرجه مسلم (162) مطولاً باختلاف يسير.

.

عنْ عبدِ اللهِ بن مسعود قالَ: أَفْرَسُ النَّاسِ ثلاثةٌ :العزيزُ حينَ قالَ لامرأتِهِ أَكْرِمي مَثواهُ عسى أنْ ينفعَنا أو نتَّخذَهُ ولدًا، والَّتي قالتْ: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: 26]، وأبو بكرٍ حين تفرَّسَ في عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهُما[1].

عزيز مصر يشتري يوسف ويوصي زوجته بإكرامه لحسن سيماه وفراسته، تليها العبارة الكونية الكبرى: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ).

جملة اعتراضية استباقية تقرر قاعدة التمكين الإلهي: (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا ليوسف في الأرض)، أي في مصر، فجعلناه على خزائنها، لأنّ سيده هو وزير خزينة مصر.

(وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ) قال البغوي: أي عبارة الرؤيا، قلت: لعل ذلك أنه يرى رؤياه بدأ شيئاً منها يتأول، وبدأ شأنه وتمكينه يعظم.

وختم الآية بـ (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) يشكل قاعدة إيمانية كبرى تعزز اليقين بأن التدبير البشري والمكر الأرضي يتهاويان أمام إرادة الله النافذة.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللَّهمَّ لا مانعَ لِما أَعطَيْتَ، ولا مُعْطيَ لِما منَعْتَ، ولا يَنفَعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ، مَن يُرِدِ اللهُ به الخَيرَ يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ[2].

---

(1) – أخرجه الحاكم في المستدرك (3363) وقال على شرط الشيخين، والطبراني في ((الكبير)) (9/ 167) (8829)، والخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (924) باختلاف يسير، وابن أبي شيبة (38213) بنحوه.

(2) – أخرجه أحمد (16850) واللفظ له، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (1684)، والطبراني (339/19(782) وصححه شعيب الارناؤوط في تخريجه للمسند.

وفي رواية الصحيحين عنه رضي الله عنه: مَن يُرِدِ اللهُ به خَيرًا يُفَقِّهْه في الدِّينِ، وإنَّما أنا قاسِمٌ ويُعطي اللهُ، ولَن يَزالَ أمرُ هذه الأُمَّةِ مُستَقيمًا حتَّى تَقومَ السَّاعةُ، أو: حتَّى يَأتيَ أمرُ اللهِ[1].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، تكررت هذه الجملة ثلاث مرات في سورة يوسف، وأما في سورة الروم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قال بعدها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، وقد قيل في قوله تعالى: (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) [الضحى:4]: إنّ هناك معنى أعم وأشمل، وهو أنّ الحال الآخرة خير لك من الحال الأولى، فإن كل حالة متأخرة من أحوالك؛ فإن لها الفضل على الحالة السابقة، قلت: وهكذا الحال مع أنبيائيه، كل حال تالية خير لهم من سابقتها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

*﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: وصول يوسف مرحلة النضج والقوة العقلية والبدنية (الأشد)، فوهبه الله الحكمة والفهم والفصل في الأمور.

لام التعريف في (الْحُكْمَ وَالْعِلْمَ) تفيد الشمول والكمال النبوي والفكري. والربط بـ (الْمُحْسِنِينَ) يمهد لما بعده من امتحانات الطهارة والعفة التي تثبت الإحسان في أعلى درجاته.

هذه هي المرة الأولى يأتي فيها وصف يوسف – عليه السلام – بالمحسن هنا، وهي كلمة توحي بأنه اجتهد في التعلم والاستفادة من عزيز مصر، لما كان له الأثر في توليه منصبه فيما بعد، ولكل مجتهد نصيب، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة حينما نفست وقد تمنت أن يكون حجها مثل باقي زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم: ولَكِنَّها على قَدرِ نَفَقَتِكِ أو نَصَبِكِ. أي أجرها [2].

---

(1) – أخرجه البخاري (71)، ومسلم(1037) .

(2) – أخرجه البخاري (3374)، ومسلم (2378) واللفظ له.

*﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَقْرَأَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {هَيْتَ لَكَ}، قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران، رفعت إلى الحجاز، معناها: إلي تعال [1].

هذا هو الابتلاء السادس يتعرض له الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وهو الامتحان الأكبر؛ بعد ابتلاء الرمي في الجب، وقيل ابتلاء الجب هو الأكبر، لأنه وحده في الغيابة المخوفة، وفي الجب، ولذا طمأنه الله وأوحى إليه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وكذا ابتلاء البيع عبداً بثمن بخس، وأيضا ابتلاء حب أبيه عده بعضهم ابتلاء لأنه جلب عليه حسد إخوانه، وكذا الحسد الذي أدى به إلى الرمي في الجب، ومن الابتلاءات كذلك أنّ الذي اشتراه من مصر اتخذه ولداً وهذا عُدّ ابتلاءً لأنه احتاج أن يكافئ الإحسان بالإحسان: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

في هذا الابتلاء امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه، مغلقة دونه الأبواب الموصدة، متمنعة بطلب الوصال (هَيْتَ لَكَ). فكان رد يوسف بالاعتصام بالله، وذكر فضل رب البيت عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قيلَ يا رسولَ اللَّهِ من أَكرَمُ النَّاسِ قال أتقاهُم للَّهِ، قالوا: ليسَ عن ذلِكَ نسألُك قال يوسُفُ نبيُّ اللَّهِ ابنُ نبيِّ اللَّهِ ابنِ خليلِ اللَّهِ قالوا ليسَ

(1) – قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أخرجها الحاكم في المستدرك (ج2/ص346)، وانظر صحيح البخاري (4692)، والبغوي: تهذيب تفسير البغوي (ص580)

عَن هذا نسألُك قال فعَن معادِنِ العربِ تسألونّي؟ فإنَّ خيارَهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فقُهوا[1]..

وفي رواية عنه رضي الله عنه: إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ خليلِ الرحمنِ[2]..

الفعل (وَرَاوَدَتْهُ) يدل على محاولات مستمرة وليست مجرد رغبة عابرة. إغلاق الأبواب يعكس شدة الخلوة والمحنة، وقوله (مَعَاذَ اللَّهِ) التجاء فوري وحصن حصين بالله. تفسير "إنه ربي" يعود إما إلى زوجها (سيدي) أو إلى الله تعالى، وكلاهما معنى بليغ في الوفاء وحفظ العهد. يقول ابن تيمية: "إن العبد إذا خلص إيمانه اندفعت عنه الشهوات المحرمة بصدق اللجوء".

*﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

همُّ المرأة كان هماً واقعياً قاصداً، وأما همُّ يوسف فهو همٌّ طبيعي بشري (خاطر نفس لم يقترن بعزم أو إرادة فعل) صرفه الله عنه برؤية البرهان.

جواب الشرط لـ (لَوْلَا) محذوف تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ هماً كاملاً، فما همَّ الفعل لأن البرهان قطعه. و(الْمُخْلَصِينَ) (بفتح اللام) أي الذين اصطفاهم الله وطهر قلوبهم، فامتنع السوء والفحشاء عنهم لعصمة الله لهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في دقائق التفسير: «الهم: اسم جنس تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار. وقد ثبت في الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه، وإذا

---

(1) – أخرجه البخاري (1787)، ومسلم(1211) .

(2) – أخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم قبل حديث (3525) باختلاف يسير، وأخرجه موصولاً الترمذي (3116) مطولاً، وصححه شعيب الارناؤوط وغيره.

تركها لله كتبت له حسنة ... ويوسف هم هما تركه لله، لذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه»[1].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فمَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له عِندَه عَشرَ حَسَناتٍ، إلى سَبعِ مِائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له سَيِّئةً واحِدةً[2]..

(لولا أن رأى برهان ربه) أي: الوازع الإيماني والعصمة: وهو الوعي العميق بشريعة الله، ومقام نبوته، وعِلمه بعاقبة هذه الخيانة، ولذا صرف الله عنه السوء والفحشاء لأنه من عباده المخلصين. فتكون الرؤية هنا قلبية أي فطن لما هيئه الله له وأراد منه أن يكونه، فانحاز لبرهان ربه.

*﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سباق محموم نحو باب الخروج؛ هي تمسك به وهو يفر منها، فتمزق قميصه من الخلف، ليفاجأ الاثنان بزوجها عند الباب. مبادرة المرأة بالاتهام تعكس دهاء المرتكب وقبل أن يتكلم البريء.

إشراقة بلاغية: التعبير بـ (وَاسْتَبَقَا) يفيد التسابق الفوري، وحرف الجر (مِن دُبُرٍ) هو الوثيقة المادية القاطعة لبراءته. واستباقها بالاتهام (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) أسلوب استباقي خبيث لقلب الحقائق.

---

(1) – انظر الحاشية على تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص581).

(2) – أخرجه البخاري (64919)، ومسلم (131) باختلاف يسير

*﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

دافع يوسف عن نفسه بثبات الحق: (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي)، وهنا يتدخل القدر بإنطاق شاهد من أهلها (قيل: حكيم أو طفل رضيع على أقوال المفسرين، والأصح أنه رجل ذو حنكة ودراية من أهل البيت).

إشراقة بلاغية: عرض القضية بمنطق رياضي دقيق يعتمد على القرينة المادية (موضع القدّ في القميص)، وهو من أعظم فنون القضاء الجنائي البلاغي في القرآن.

*﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: الشق الثاني من القاعدة الحكمية للشاهد الحكيم: إن كان التمزق من الخلف، فهو دليل هروبه ومطاردتها له، فتكون هي الكاذبة وهو الصادق.

توازن بلاغي وترابط منطقي محكم (فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) مقابل (فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) يعكس جلاء الحق وانكشاف الباطل بسلطان الدليل.

*﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: معاينة الزوج للقميص الممزق من الخلف، وإقراره ببراءة يوسف، وإطلاقه للحكم العام على طبيعة كيد النساء عندما يجتمع الهوى مع السلطة.

إشراقة بلاغية: التعبير بـ (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) ليس ذماً مطلقاً لجنس النساء، بل وصفاً لقوة تأثيرهن العاطفي والنفسي إذا انحرفن، حيث يستطعن تحريف الحقائق ببريق الغواية.

*﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾: طوى العزيز الصفحة بحكمة بالغة لتطويق الفضيحة: طلب من يوسف كتمان الأمر والإعراض عنه، وطلب من زوجته الاستغفار لذنبها العظيم.

وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ الشَّاهِدِ لِيُوسُفَ وَلِامرأة العزيز، وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ: (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ)، أَيْ سَلِي زَوْجَكِ أَنْ لَا يُعَاقِبَكِ وَيَصْفَحَ عَنْكِ (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) مِنَ الْمُذْنِبِينَ، حَتَّى رَاوَدْتِ شَابًّا عَنْ نَفْسِهِ وَخُنْتِ زَوْجَكِ، فَلَمَّا اسْتَعْصَمَ كَذَبْتِ عَلَيْهِ.

وَإِنَّمَا قَالَ: "مِنَ الْخَاطِئِينَ" وَلَمْ يَقُلْ: مِنَ الْخَاطِئَاتِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ الْخَبَرَ عَنِ النِّسَاءِ بَلْ قَصْدَ بِهِ الْخَبَرَ عَمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، تَقْدِيرُهُ: مِنَ الْقَوْمِ الْخَاطِئِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) [التَّحْرِيمِ :12] بَيَانُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى عن ملكة سبأ: (وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ) [النَّمْلِ :43][1].

إشراقة بلاغية: إيجاز بليغ يغني عن تفاصيل العتاب؛ فالعزيز أراد لمّ شمل بيته وإغلاق الباب على الفتنة نهائياً، مكتفياً بالعدل الضمني والستر الحكيم.

فهل انتهت القضية كما أرادها العزيز؟ هيهات، فسرعان ما خرجت القضية عن طوق الكتمان وأصبحت حديث نسوة في المدينة.

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (35) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا

(1) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص583).

نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42))

هذه الآيات العطرة من سورة يوسف (عليه السلام)، هي الدرس الثالث في هذه الدراسة.

المقطع الأول: المحاكمة النسائية: *﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ينتقل بنا السياق من ضيق قصر العزيز وخلوة المحنة إلى فضاء المدينة الواسع، حيث يتسرب الخبر إلى مجتمعات ذوات الخدور والطبقة الراقية. تتكشف القصة على ألسنة النسوة بأسلوب تعبيري يحمل لومًا واستنكارًا.

شَاعَ أَمْرُ يُوسُفَ وَالْمَرْأَةِ فِي الْمَدِينَةِ مَدِينَةِ مِصْرَ إذن. وَقِيلَ: مَدِينَةُ عَيْنِ الشَّمْسِ، وَتَحَدَّثَ النِّسَاءُ بِذَلِكَ، وَقِيلَ: هُنَّ نِسْوَةٌ مِنْ أَشْرَافِ مِصْرَ -: (امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا) أَيْ: عَبْدَهَا الْكَنْعَانِيَّ، (عَنْ نَفْسِهِ) أَيْ: تَطْلُبُ مِنْ عَبْدِهَا الْفَاحِشَةَ، (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) أَيْ: عَلِقَهَا حُبًّا.

كلمة "فَتَاهَا" تشير إلى العبد المملوك أو الفتى الشاب، وهو وصف يزيد المفارقة حدة (سيدة القصر تتعلق بفتاها).

تعبير "شَغَفَهَا حُبًّا" من أجمل صور البلاغة القرآنية؛ الشَّغَاف غشاء القلب، فهذا الحب دخل تحت الغشاء والتصق بالسويداء. يقول ابن القيم رحمه الله: والشَّغاف غشاء القلب، إذا وصل الحبُّ إليه باشر القلب. قال السُّدِّيُّ – رحمه الله –: الشَّغاف جلدةٌ رقيقةٌ على القلب، يقول: دخله الحبُّ حتّى أصاب القلبَ»)[1]..

ختمت الآية بقولهن: (إنا لنراها فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أي: انحراف ظاهر عن العقل ومقتضى الشرف والمكانة الاجتماعية الرفيعة.

*﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

هذا مشهد قرآني هائل، ترسمه الكلمات بحركة ولون وحرارة نفسية. امرأة العزيز لا تواجههن بالصراخ، بل تدبر "مكراً" في مقابل مكرهن وغيبتهن. أعدت لهن مجلساً ومُتكأ (المكان الممهد للاتكاء والطعام، وغالباً ما يكون مجلساً مترفاً للفاكهة التي تقطع بالسكاكين كالأترج).

(فلمّا رأينه أَكْبَرْنَهُ) أي عظّمْن شأنه وأجللن جماله وهيبته حتى بهر أبصارهن.

(وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)، التعبير بالفعل (قطعن) أبلغ (جرحن) جاء للمبالغة والتصوير الحسي البليغ، حيث أن شدة الذهول الجمالي أفقدهن الإحساس بالألم حتى قطعت السكاكين أيديهن وهن لا يشعرن! هذا استغراق في الانبهار والدهشة.

(وقلن حَاشَ لِلَّهِ)، تنزيه لله عز وجل وتعجب من قدرته في إبداع هذا الجمال الفائق البشري الممتزج بالنور والوقار، لدرجة أنهن نفين عنه البشرية وقلن: (إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ).

---

(1) – انظر ابن القيم: مدرج السالكين (ج3/ص397)، دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ – ٢٠١٩ م.

*﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

لقد خلعت قناع التكتم، وأقرّت بالحقائق أمام لائماتها لتقول لهن: انظرن بأنفسكن، فالعذر بيّن!

(فَاسْتَعْصَمَ) صيغة تدل على طلب العصمة وبذل أقصى الجهد في الامتناع والتحصن بطاعة الله وعفته، وليس مجرد امتناع عابر.

ثم جاء التهديد المزدوج: (وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) مؤكد باللام ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة، مما يعكس طغيان السلطة وسطوة الجاه عندما يواجه العفة المجردة، فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعدته المرأة، وهذا غاية في تربية المسلم تالي القرآن وتصفية لوعيه حيث اقتدى بأنبياء الله ورسله.

*﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

هذه الآية من أعظم آيات التوكل والافتقار إلى الله. يوسف عليه السلام لم يثق بنفسه طرفة عين، بل فوض الأمر لله، معلناً أن السجن مع العفة أحب إليه من النعيم مع المعصية، والله سبحانه وتعالى قريب من عبادة، وهو سبحانه إلى المحسنين أقرب.

والتوكل هو حسن الاعتماد على الله، وله ركنان: الأول: الأخذ بالأسباب، والثاني: الدعاء، وهما يتضحان في هذه الآية فيوسف عليه السلام أخذ بالأسباب، فاتقى شرهن، واستعصم، ودعا الله دعاء المتضرع الفقير المحتاج إلى نصرته سبحانه.

(أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) الصَّبوة هي الميل إلى جهل الشباب والهوى. يدرك يوسف عليه السلام طبيعته البشرية الضعيفة إن لم يمدها المدد الإلهي.

(وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ) فيه دليل على أنّ المؤمن إذا ارتكب ذنباً يرتكبه عن جهالة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني وهو مُؤمِنٌ، ولا يَسرِقُ السَّارِقُ حينَ يَسرِقُ وهو مُؤمِنٌ»)[1].

قيل في معنى الحديث: أنّ المؤمن حالَ إتيانِ هذه الكبيرةِ وارتكابِها لا يتَّصِفُ بصِفةِ الإيمانِ، بلْ إنَّ الإيمانَ يُنزَعُ منه وهو يَرتكِبُ هذه الكبائرَ، فمَن يَزْني لا يَزْني وهو مُتَّصِفٌ بالإيمانِ. أو يُنزَعُ منه نُورُ الإيمانِ، والإيمانُ هو التَّصديقُ بالجَنَّانِ، والإقرارُ باللِّسانِ، والعمَلُ بالجَوارحِ والأركانِ، فإذا زَنى المسلمُ، أو شَرِبَ الخمْرَ، أو سَرَقَ؛ ذَهَبَ نُورُ الإيمانِ وبَقيَ صاحبُه في ظُلمةٍ. ويَصِحُّ أنْ يكونَ المَنفيُّ هو كَمالَ الإيمانِ وليس أصْلَ الإيمانِ، فيَكون المعْنى: لا يَزْني الزَّاني حِين يَزْني وهو مُؤمِنٌ كاملُ الإيمانِ. أو المرادُ مَن فَعَلَ ذلك مُستحِلًّا له فهو غيرُ مُؤمنٍ؛ إذ استحلالُ الحرامِ مِن مُوجِباتِ الكفْرِ. أو كَلامُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بابِ الإنذارِ والتَّحذيرِ مِن زَوالِ الإيمانِ إذا اعتادَ هذه المعاصيَ واستَمرَّ عليها

*﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: الفاء في (فَاسْتَجَابَ) تفيد التعقيب المباشر وسرعة الغوث من الله لمن صدق في لجوئه. وجاء الختم باسمين كريمين: (السَّمِيعُ) لدعائه واستغاثته، (الْعَلِيمُ) بحقيقة طويته وضعفه واضطراره.

*﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾: على الرغم من ظهور الآيات الواضحات على براءته (كتقطيع الأيدي وشهادة الشاهد من أهلها)، إلا أن منطق السياسة والكبراء والأعراف الاجتماعية للجاهلية اقتضى إدخاله السجن لقطع اللغط وإخفاء الفضيحة، وإرهاب من يشيعها بأقل الثمن.

تعبير (حَتَّىٰ حِينٍ) يعكس الغموض المؤقت الذي فرضه سد باب الشائعات بحسب زعمهم.

---

(1) – أخرجه مسلم (6782)، وروى البخاري نحوه (2475) من حديث أبي هريرة.

*﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

يتحول مسرح الآيات إلى عتمة السجن، لكن نور النبوة يملأ المكان. الفتيان دخلا مع يوسف وهما يحملان هاجس الحلم والرؤيا. وصفاه بقولهما: "إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ"، هذه المرة الثانية يوصف فيها يوسف عليه السلام بالإحسان، يظهر الإحسان هنا في السجن من خلال حسن الخلق، ومواساة المحزونين، وخدمة الضعفاء.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من شيءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خُلقٍ حسنٍ وإنَّ اللهَ يُبغضُ الفاحشَ البذيءَ»[1].

*﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

الداعية الحكيم لا يستغل حاجة الناس للاستعلاء، بل يستغلها مدخلاً للدعوة إلى الله. قبل أن يعبر لهما رؤياه، وجّه أنظارهما إلى المعلم الحقيقي وهو الله، مستعرضاً نسبه الإيماني العريق وموقفه الفكري والعقدي من الشرك والإلحاد.

*﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(1) – أخرجه أبو داود (4799)، وأحمد (27517) مختصراً، والترمذي (2002) باختلاف يسير، وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب، وقيل عن سنده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.

قال البغوي – رحمه الله – جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، فقيل إن كلمة (صاحبَي) هي مثنى (صاحِبَين)، وحُذفت النون للإضافة إلى "السجن". وحُرّكت الياء بالكسر (صاحِبَيِ) للتخلص من التقاء الساكنين بسبب سين "السجن" الساكنة المدغمة.

ويجوز أن يكون الأصل (يا صاحبيَّ)، فحُذفت ياء الإضافة اتساعاً وتخفيفاً لكثرة الاستعمال في النداء، وحُرِّك ما قبلها بالكسر دلالة عليها.

فالمعنى هنا: يا ساكِنَي السجن أو يا رفيقيَّ المتواجدين في السجن (إضافة إلى الظرف)..

المقارنة العقلية البديعة بين "أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ" الذين يمزقون النفس والولاء، وبين "اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ" الذي تستقيم به الفطرة وتطمئن بذكره القلوب.

(أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا) يبيّن زيف الأصنام وأنها مجرد ألقاب خاوية لا حقيقة لها ولا سلطان من الله بها.

*﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

ينتقل يوسف عليه السلام من الوعظ إلى التعبير المباشر للرؤيا بمنتهى الشجاعة واليقين، كاشفاً مصير كل واحد منهما بوضوح قاطع ("قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ" أي حُتِم وكتب في القضاء الإلهي).

*﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

هنا تبرز اللفتة التربوية العميقة التي توجه الوعي وتربيه؛ يوسف عليه السلام تعلق بالسبب البشري لحظة وقال (اذكرني عند ربك)، فكان الجزاء التربوي الإلهي أن أنساه الشيطان ذكر ربه (أي أنسَى الناجي أن يذكر يوسف للملك)، فلبث يوسف في

السجن بضع سنين إضافية ليتخلص قلبه كلياً من التعلق بالبشر ويتعلق بالواحد الأحد تعلقاً لا شائبة فيه.

بهذه اللوحة البيانية والقرآنية المتكاملة، نرى كيف تتسابق الكلمات والآيات لترسم طريق العفة، والتوكل، والدعوة إلى الله في أحلك الظروف وأضيق السجون.

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ(53))

هذا النص القرآني المعجز في هذا الدرس من سورة يوسف؛ حيث يرتفع البناء السردي والبلاغي إلى ذروته، ممزوجاً بالحكمة السياسية، والعمق النفسي، والدقة الاقتصادية.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾

يبدأ المشهد بانتقال فجائي بعد سنوات الغيبة في السجن، ليُسلط الضوء على هرم السلطة (الملك). استخدام الفعل المضارع (أرى) يفيد الاستحضار والتجدد؛ وكأن الملك ما زال يعيش رعبة الرؤيا وهولها الماثل أمام ناظريه، أو أنّ الرؤيا لا زالت تتكرر في منامه. وتنكير "سبع بقرات" و"سنبلات" يدل على الهول والتعظيم، فالمشهد مبهم ومفزع.

التضاد التقابلي: (سِمَانٍ)، (عِجَاف) و(خُضْرٍ)، (يَابِسَات)؛ وهو تقابل بصري حاد يجسد ثنائية الخصب والجدب، الموت والحياة.

قولُه (يَأْكُلُهُنَّ) فيه إيحاء مرعب لامتصاص الضعف للقوة، وهو ما يعبر عنه بدقة في تناسب العبارة مع هول المعنى.

يُشير بعض المفسرين إلى أن الملك أتى بالرؤيا مجردة من غير تفصيل لزمان أو مكان، مما جعلها لغزاً محيراً لعلماء عصره (الملأ)، حيث عبروا عنها بـ (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) لعجزهم عن تفكيك رموزها الاقتصادية والكونية.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾: والأضغاث هي الأخلاط والأباطيل التي لا تأويل لها – يعكس حالة التملص العلمي من قِبل حاشية الملك.

جملة (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ) مؤكدة بالباء المزيدة في خبر (ما) الحجازية، لقطع الأمل نهائياً في حل اللغز من قبلهم، وهو أسلوب توكيد بليغ يدل على الاعتراف بالعجز التام.

هذا التخبط من الملأ يمهد الجو النفسي لظهور يوسف عليه السلام في كامل نجابته وعلِمه، فكلما تعقدت المشكلة وانسدّت الأبواب، تشتد الحاجة إلى النور الرباني.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾: كلمة (ادَّكَرَ) أصلها (افتعل) من الذكر، أبدلت تائها دالاً لتسهيل النطق، وهي تفيد التذكر بعد نسيان

مطبق. وعبارة (بعد أُمَّةٍ) تعني بعد حينٍ طويل من الزمن، مما يبرز حكمة التدبير الإلهي في توقيت إخراج يوسف؛ فلا يخرج سراً، بل يخرج في لحظة حاجة قصوى تليق بمقامه.

فعل الأمر (فَأَرْسِلُونِ) ينم عن ثقة وحماسة عارمة للوفاء بالدين القديم ليوسف في السجن.

*﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

إشراقة بلاغية: نداء مجرد من أداة النداء (يا) لقرب يوسف من قلبه ومكانته (حذف القريب)، ووصفه بـ (الصِّدِّيقُ) صيغة مبالغة تدل على كمال الصدق والامتحان العالي الذي اجتازه، وهي عبارة تحمل من الإعجاب والثناء على شخصية يوسف – عليه السلام – مثل ما تحمله عبارته الأولى مع صاحبه (إنا نراك من المحسنين).

ثم ختم طلبه بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: قيل قصد لعلهم يعلمون منزلتك في العلم[1].

نلاحظ هنا رفعة أخلاق يوسف وسمو نفسه؛ فهو لم يشترط الخروج من السجن أولاً قبل التعبير، بل بادر بالعلم والخدمة، مجسداً صفات الصديقين الذين لا تحملهم المحن على جفاء الحق.

*﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾: هَذَا خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، يَعْنِي: ازْرَعُوا سَبْعَ سِنِينَ عَلَى عَادَتِكُمْ فِي الزِّرَاعَةِ. وَالدَّأَبُ: الْعَادَةُ. وَقِيلَ: بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ.

(1) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص587).

وَقَرَأَ عَاصِمٌ بِرِوَايَةِ حَفْصٍ: (دَأَبًا) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ، وقرأ الآخرون بإسكانها، وَهُمَا لُغَتَانِ، يُقَالُ: دَأَبْتُ فِي الْأَمْرِ أَدْأَبُ دَأَبَا وَدَأْبًا إِذَا اجْتَهَدْتُ فِيهِ، فهي تعني التتابع المتواصل، كما تعني الجد المستمر بلا فتور.

(فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ) أَمْرَهُمْ بِتَرْكِ الْحِنْطَةِ فِي السُّنْبُلَةِ لِتَكُونَ أَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ وَلَا تَفْسُدَ، (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) أَيْ: مِمَّا تَدْرُسُونَ قَلِيلًا لِلْأَكْلِ، أَمَرَهُمْ بِحِفْظِ الْأَكْثَرِ وَالْأَكْلِ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ.

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ) سَمَّى السِّنِينَ الْمُجْدِبَةَ شِدَادًا لِشِدَّتِهَا عَلَى النَّاسِ، (يَأْكُلْنَ) أَيْ: يَفْنِينَ وَيُهْلِكْنَ، (مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ) أَيْ: يُؤْكَلُ فِيهِنَّ مَا أَعْدَدْتُمْ لَهُنَّ مِنَ الطَّعَامِ، أَضَافَ الْأَكْلَ إِلَى السِّنِينَ عَلَى طَرِيقِ التَّوَسُّعِ – وهو تعبير مناسب لما جاء في الرؤيا – (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ) تُحْرِزُونَ وَتَدَّخِرُونَ لِلْبَذْرِ[1].

الابتكار الاقتصادي العبقري هنا يكمن في قوله: (فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ)، وهو سرّ علمي بحت يؤكده علماء الزراعة؛ فبقاء القمح داخل سنبله يحميه من التآكل، والتسوس، والآفات على مدى السنين الطويلة.

هكذا تحولت الرؤيا عند يوسف من مجرد استشراف مستقبلي إلى خطة استراتيجية شاملة للأمن الغذائي لدولة بأكملها.

*﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾

إشراقة بلاغية: التعبير بـ (سَبْعٌ شِدَادٌ) بدلاً من "قحط" أو "جدب" فيه تفخيم لشدة البأس وقسوة تلك السنوات. واستخدام الفعل (يأكلن) مجدداً يربط رؤيا الملك وتأويلها بانسجام فني عجيب. وكلمة (تُحْصِنُونَ) من الحصانة والادخار الدقيق لما يُحفظ للبذار والمستقبل.

---

(1) – المصدر والصفحة السابقين.

*﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: (يُغَاثُ النَّاسُ): مبني للمجهول للإشارة إلى شمولية الغيث ورحمة الله التي تتدفق من حيث لا يحتسبون (من الغيث وهو المطر).

(وَفِيهِ يَعْصِرُونَ): كلمة مكثفة ودلالية بامتياز؛ فعصر العنب، والزيتون، والسمسم لا يكون إلاّ من شدة الوفرة والخصب والرخاء الفائض عن حاجة الأكل المباشر إلى مرحلة الرفاهية والصناعة الزراعية.

يظهر التناسب البديع في خاتمة سنين البلاء، وكيف ختمها الله بالبشارة المزدوجة التي تثلج الصدور وتؤكد انتهاء الأزمة تماماً.

*﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نحنُ أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيمَ إذ قالَ ربِّ أرِني كيفَ تُحيي المَوتى قَالَ أوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ويرحمُ اللَّهُ لوطًا لقد كانَ يأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ ولَو لَبِثْتُ في السِّجنِ طولَ ما لَبِثَ يوسفُ لأجبتُ الدَّاعيَ[1].

لكن تتجلى هنا عزة النفس النبوية في أبهى صورها. يوسف العبد المظلوم يرفض الخروج على الفور وبشروط منتقصة، وبعطف الملك عليه، بل يربط حريته بـ (إثبات البراءة ونظافة السيرة) أولاً.

وفي قول نبينا صلى الله عليه وسلم (لأجبت الداعي) التيسير على هذه الأمة، وإنمّا أراد يوسف – عليه السلام – أن يخرج من السجن ناصع البياض طاهراً أمام الملك والمجتمع، لا متهماً هارباً، لتستقيم له مقاليد الإصلاح عن قوة وثقة.

(1) – أخرجه البخاري (3372) واللفظ له، ومسلم (151).

*﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

إشراقة بلاغية: (حَصْحَصَ الْحَقُّ): تعبير بليغ يعني تبيّن وظهر وخلص بعد لبس (مأخوذ من حصحص السحاب إذا انكشف وانقشع).

اعتراف امرأة العزيز جاء صريحاً مدوياً (أنا راودته) دون مواربة، بعد أن صرخت كلمة الحق التي أخفتها سنين طويلة.

يشير علماؤنا إلى أن هذا الاعتراف الصريح هو ثمرة الصدق الخالص والتعفف الرباني ليوسف، حيث جند الله لبرائته لسان من كانت سبباً في فتنته.

*﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾: تأكيد على الأمانة المطلقة؛ فالعفة ليست فقط أمام الأعين، بل في الخلوات حيث لا رقيب إلا الله. فالآية تقرّر قاعدة سنن الله في خلقه: (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ).

*﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

جملة معترضة بليغة تحمل غاية التواضع الخالص لله عز وجل، فرغم عِصمة الأنبياء، إلا أن يوسف عليه السلام يُظهر تمام الافتقار والذل لله.

(لَأَمَّارَةٌ): صيغة مبالغة تفيد كثرة النزوع نحو الشهوات بطبعها البشري، ما لم يتداركها لطف الله ورحمته (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي).

إن اعتراف العبد بضعف نفسه هو باب السلامة والتمكين، فالعبد لا ينجو بحوله وقوته بل برحمة الله ومغفرته.

هكذا نجد في ثنايا هذه الآيات أثر صبر نبي الله يوسل الجميل أعمق وأوضح في بناء شخصيته عليه السلام وتكون المحصلة تمكينه في الأرض؟، ومن هنا تأتي القاعدة: بالصبر واليقين تكون الإمامة في الدين.

سَأَلَ رجل الشَّافِعِي فَقَالَ يَا أَبَا عبد الله أَيّمَا أفضل للرجل أَن يمكَّن أَو يَبْتَلِي فَقَالَ الشَّافِعِي لَا يمكَّن حَتَّى يبتلى[1].

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (59) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ

(1) – ابن القيم: الفوائد (ص208)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية 1393هـ، 1973م.

وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(69).

هذه الآيات العطرة في هذا الدرس من سورة يوسف؛ هي والسورة جميعها تبرز المشاعر الجياشة، وقدوة الإحسان، والتحولات القدرية الساحرة.

*﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

(أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي): تعبير ينم عن إعجاب الملك الفريد بيوسف عليه السلام، وكأن وجوده خارج دائرة المشورة الخاصة نقصٌ يحتاج إلى تدارك.

(مَكِينٌ أَمِينٌ): جناس معنوي وتكامل صفاتي رفيع؛ فـ "المكين" هو صاحب المكانة والمنزلة والسلطان النافذ، و"الأمين" هو من يؤتمن على السرائر والعهود. وقد جمع يوسف بين القوة (المكانة) والأمانة، وهما المعياران القطعيان لتولي المسؤوليات الكبرى، يذكرنا بما رشحت به ابنة العبد الصالح نبي الله موسى عليه السلام: (قالت يا أبت استأجره إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) [القصص:26].

فهم يوسف عليه السلام هذا التنويه بشأنه والثناء عليه وأنه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير، ولهذا كان جوابه:

(قال اجعلني على خزائن الأرض إني حَفِيظٌ عَلِيمٌ): رشّح يوسف نفسه إذن، للقيام بمصالح الأمة، على سنة أهل الفضل والكمال، لما ترتاح له نفوسهم للعلم والمصالح، سأن أن يوليه خزائن الأرض، بـ (ال) تعريف العهد، وهي الأرض المعهودة لهم، أرض مصر، وشهادة التأهيل كانت (إني حفيظ عليم)، وهي شهادة يعلمها وزير الخزانة السابق إن كان باقيا، أو من شاركة معونة ذلك الوزير الذي أحسن مثواه،

والحفيظ: هو القادر على حفظ المال وصيانته من التبدد، والعليم: الخبير بطرق إدارته وتدبيره وتخطيط الأزمات، وقد سألة توليه خزائن الأرض، ولعلها الوظيفة التي لمحها من خلال رؤيا الملك، ليحفظ الأموال، ويعدل في توزيعها، ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها[1]..

هكذا يرتقي العبد الصالح الصابر إلى ذروة السلطان، لا بخديعة ولا بانقلاب، بل بأمانته وعلمه وكفاءته، ليكون أداة قدرية لرحمة الأمة،

على أن السلطة تكليف وابتلاء عظيم، كما قال نبي الله سليمان عليه السلام (قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [النمل:40].

*﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُون، وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِين، فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُون، قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُو، وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون﴾.

(فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ): مقابلة دقيقة؛ يوسف الشاب الذي تركوه في البئر أصبح ملكاً مكيناً مريباً في هيئته ولباسه ولغته المصرية، بينما هم على حالتهم الأولى (إخوة يسكنون البدو ويسعون في طلب الميرة)، فلم يتوقعوا أبداً أن يكون هو ذاك الغلام.

(وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ): تعبير بليغ يمزج بين كرم الضيافة المهيب والدبلوماسية الحكيمة، وهو تمهيد نفسي لإيقاعهم في الأسر العاطفي لصفاته.

(1) – انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص5).

(وقال لفتيانه اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ): تدبير دقيق ينم عن دهاء تربوي ونفسي؛ أراد يوسف أن يردهم بالحسنى وبدافع إنساني خفي (لعلهم يرجعون طوعاً لا كرهاً).

قيل: أراد أراد يوسف عليه السلام من إرجاع بضاعتهم إليهم إكرام أبيه وإخوانه بطريقة لا تخدش كبرياءهم، ولكي يضمن عودتهم مع أخيهم الأصغر (بنيامين) دون أن يشعروا بأن الأمر مؤامرة، بل هو لطف إلهي مقدر.

*﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِير﴾.

قوله: (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا): التفات قلبي عجيب من ألم البشر إلى رعاية رب الأسباب. يعقوب عليه السلام يستحضر ذاكرة الماضي الأليمة مع يوسف، ثم يُسْلِم الزمام لله وحده بعبارة قطعية بليغة، ملؤها توكل على مولاه.

(قالوا يا أبانا مَا نَبْغِي): تعبير موجز يعني: ما عسانا نطلب أكثر من هذا العدل والإحسان؟ بضاعة ردت إلينا سليمة، وكيل زائد متوفر.

إنّ قلب نبي الله يعقوب عليه السلام يظل معلقاً بيوسف طوال تلك السنين، ومع ذلك لم يفقد ثقته بربه، وكلما اشتدت الكربة انفتحت نافذة جديدة من التسليم المطلق *﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

*﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون، وَلَمَّا

دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون، وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ): حرص الأب المشفّق الحذر من أن يلفتوا الأنظار بجمالهم وكثرتهم، فتدخل عليهم العين أو الحسد، أو تثير ريبة السلطات المصرية.

(إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا): لمسة بلاغية دقيقة توضح أن الأخذ بالأسباب لا يرد القدر المحتوم إلاّ بقدر ما أذن الله، وإنما هي "شفقة أب" وإرواء لحاجة وجدانية نفسية في قلب يعقوب.

(آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فلا تبتئس بما كانوا يعملون): ذروة الانفعال الوجداني في السورة. عبارة قصيرة حاسمة تزيل سنوات الفراق الموحشة، وتنثر الطمأنينة في قلب بنيامين المرعوب.

"ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوى، وإطلاعه على أنه أخوه، ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى ما فعله إخوته به من قبل، وهي ذكرى لا بد كان يبتئس لها الصغير كلما علمها من البيت الذي كان يعيش فيه.

يعجل السياق بهذا – وهذا من دقائق التعبير في الكتاب العجيب– بينما الطبيعي والمحتوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف، ولكن السياق طوى الترحيب، وفترة الضيافة، وما دار فيه ما بين يوسف وإخوته من الملاطفة وحسن الاستقبال والضيافة، ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه، وعند رؤيته لأخيه بعد الفراق الطويل[1].

إنها اللحظة التي يلتقي فيها الشقيقان.. أخوة الدم والمعاناة واليتم المبكر.. يضم يوسف أخاه إليه في خلوةٍ تطمئن لها روحه، ويهمس له بكلمته الآسية الدافئة: (إني

(1) – انظر سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2018).

أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون)، لينسيه بكلمة واحدة مرارة السنين وما عانوه من إخوتهم.

ثمّ نطلع على تدبير يوسف عليه السلام ليحتفظ بأخيه، ريثما يتلقى إخوته درساً أو دروساً ضرورية لهم، وضرورية للناس في كل زمان ومكان.

(فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (79)فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(86) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(87))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة يوسف عليه السلام هي الذروة واللحظة الحاسمة في اقصة والإشراق في سيرة نبي الله يوسف عليه السلام. إنها مواجهة الحيلة بالحق، واستخراج مكنون النفوس، وانكشاف طبقات البشرية، وتجلّي التدبير الإلهي الخفي الذي يصنع الأحداث على عينِ علمِه ورحمته.

*﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

تبدأ الآية ببناء العقدة؛ لغة التدبير الهادئ الخفي تُقابلها زلزلة المباغتة. استخدام فعل ﴿جَعَلَ﴾ دون إظهار مباشر للمُباشر يُشعر بالتخطيط المحكم الدقيق.

﴿السِّقَايَةَ﴾ هي: إناء شرب، وهي عينها ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾، وكان إناءً ثابت القياس شريفاً تُكال به الميرة. أما جملة ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فالعير اسم للحمولة أو القافلة من إبل وحمير وما عليها من أحمال وما معها من ركابها، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة، وأسندت السرقة إلى جميعهم جرياً على المعتاد من مؤاخذة الجماعة بجرم الواحد منهم، وقولهم: الخطأ يعم والصواب يخص.

وتأنيث اسم الإشارة (أيتها) لتأويل العير بمعنى الجماعة، لأنّ الركاب هم الأهم[1].

*﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، إشراقة نحوية بلاغية: جملة ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ جملة حالية معترضة تعكس الثقة والجسارة. المظلوم المتأكد من براءته لا يهرب، بل "يُقبل" مستفسراً بـ ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾. لم يقولوا "ماذا سرقنا؟" بل استخدموا فعل الفقد، إشارة إلى أنهم لم يأخذوا شيئاً، وأن الغائب لدى القوم مفقود وليس بمسروق.

*﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾. هذه الآية أصل فقهي ولغوي كبير استنبط منها العلماء أحكام الجعالة والضمان والكفالة، في قوله: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ (جعالة) وقوله ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (ضمان وكفالة)، الكفالة تتعلق بإحضار الشخص أو البدن (إحضار المدين)، بينما الضمان يتعلق بالتزام ودفع المال (سداد الدين)، وأما **الجِعَالة** (بكسر الجيم، ويحكي فيها التثليث بالفتح والكسر والضم): هي اسم لما يُجعل ويُعطى للإنسان على فعل شيء معين، سواء كان العمل معلوماً أو مجهولاً يعسر علمه، في زمن معلوم أو مجهول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وَأَمَّا لَفْظُ " الزَّعِيمِ " فَإِنَّهُ مِثْلُ لَفْظِ الْكَفِيلِ وَالْقَبِيلِ وَالضَّمِينِ قَالَ تَعَالَى: (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)، وقال: ضَمَانُ السُّوقِ وَهُوَ أَنْ يَضْمَنَ الضَّامِنُ مَا يَجِبُ عَلَى التَّاجِرِ مِنْ الدُّيُونِ وَمَا يَقْبِضُهُ مِنْ الْأَعْيَانِ الْمَضْمُونَةِ ضَمَانٌ صَحِيحٌ وَهُوَ ضَمَانُ مَا لَمْ يَجِبْ وَضَمَانُ الْمَجْهُولِ وَذَلِكَ جَائِزٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ. وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ كَقَوْلِهِ: (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)[2].

إشراقة بلاغية: التنكير في ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ للتكثير والترغيب، والتعبير بـ ﴿زَعِيمٌ﴾ بدل "كفيل" إظهارٌ للهيبة والالتزام التام.

---

(1) – انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص19).

(2) – انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى (ج11/ص92، ج29/ص549).

*﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾: القسم بـ ﴿تَاللَّهِ﴾ غالباً ما يُستخدم في المواقف العظام المتضمنة للتعجب والإنكار الشديد.

ويلاحظ كثرة التوكيدات: صيغة التوكيد بالقسم ﴿تَاللَّهِ﴾ و﴿لَقَدْ﴾، وأحالوا على معرفة أهل مصر السابقة بهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ بما رأوا من عفافهم وردّهم للبضاعة السابقة. نَفَوْا العلة الكبرى أولاً ﴿لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الغاية)، ثم نَفَوْا العرض والوصف ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (فلم يقل "ما سرقنا" بل "ما كنا" لنفي الطبيعة والسجية).

*﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾، نلحظ هنا السياسة الشرعية والتودد في نقل التشريع والاستفتاء إليهم. فهذه نقلة ذكية ليصدر الحكم بفتواهم وشريعة أرضهم (شريعة يعقوب) دون شريعة ملك مصر.

*﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ البيان والتركيب الشرطي ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ يتضمن إيجازاً وبلاغة؛ أي: استرقاقه وعبوديته هو المقابل والجزاء. ختموا بـ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ تعبيراً عن شدة مقتهم للسارق وتبرئة لأنفسهم.

*﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ...﴾

هذا المشهد العجيب؛ مشهد حبس الأنفاس والتفتيش الدقيق حتّى لا تثور الشبهة. البدء بأوعية الكبار لتغطية الغاية، حتّى إذا وصل لوعاء أخيه استخرجها.

لطيفة بلاغية: قوله ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ ولم يقل "استخرج الصواع"، وإنما أعاد الضمير على ﴿السِّقَايَةَ﴾، قال ابن عاشور رحمه الله: وهذا التأنيث في تمام الرشاقة، إذ كانت في الحقيقة أنها سقاية، جعلت صواعاً. فهو كرد العجز على الصدر[1].

أو يقال: هو لف ونشر غير مرتب، (جعل السقاية) ثم (نفقد صواع الملك)، ثم (من وجد في رحله) أعاد الضمير للصواع، ثم (ثم استخرجها) أعاد الضمير على السقاية.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾: الكيد هنا ليس مذموماً، بل هو التدبير اللطيف لصالح الحق.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾: في قانون مصر (دين الملك) كان السارق يُضرب ويُغرّم ضعف القيمة، بينما في شريعة يعقوب يُسترقّ.

---

(1) – انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى (ج11/ص92، ج29/ص549).

فلو حُكم بحكم مصر لما استطاع يوسف الاحتفاظ بأخيه، ولكن الله أجرى الفتيا على ألسنتهم!

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: فيه شاهد على تفاوت الناس في العلم، وأن علم علام الغيوب لا ينحصر مداه، وأنه فوق كل نهاية من علم الناس، قال ابن عباس رضي الله عنه: فوق كل عالمٍ عالمٌ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى[1].

انفجار النفسية القديمة وكتمان السمو: *﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

تتجلى نفسية الحسود والطباع القديمة عند الابتلاء: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾. يتبرؤون من أخيهم بنيامين، ويقرنون بينه وبين أخية للإساءة والتبرؤ، ومحاولة استفزازية!، يقصدون يوسف وما يُؤثر عنه في صغره، وقيل: بل قالوا ذلك بهتاناً ونفياً للمعرة عن أنفسهم، وليس ليوسف عليه السلام سرقة من قبل، ولم يكن إخوة يوسف يومئذ أنبياء، وشتان بين السرقة وبين الكذب إن لم تترتب عليه مضرة[2].

*﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾: قمّة الضبط النفسي والحلم اليوسفي. لم يتأثر برغبة الانتقام السريع، بل كظم الغيظ، وأبت نفسه أن يجرح مشاعرهم.

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾: قالها في نفسه أو بصوتٍ خفي/معرّضٍ به؛ أي أنتم أشد شراً ومكاناً وسرقةً حين سرقتم أخاكم من أبيه ورميتموه في الجب.

*﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

تحول الخطاب من الحجة والأنفة إلى الذلة والتوسل. تكرير الأوصاف ﴿أَبًا﴾، ﴿شَيْخًا﴾، ﴿كَبِيرًا﴾ لاستدرار العاطفة وتجسيم المأساة.

إشراقة بلاغية: قَوْلُهُمْ ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ مدحٌ يُراد به أخذ نُبْلِ العزيز ومروءته ليتنازل عن القانون، وهي المرة الثالثة يوصف فيها يوسف – عليه السلام – بالإحسان؛ وصفه ربه أولاً، وكفى بشهادة الله جل وتعالى، ثم وصفه صاحباه في السجن، وهنا يصفه إخوته بالإحسان كذلك.

*﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾، أي: نلجأ إلى الله أن يعصمنا من الظلم، لأنّ أخذ من وجد المتاع عنده صار حقاً عليه بحكه على

---

(1) –وانظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص594)، وابن عاشور (ج6/ص23).

(2) – وانظر ابن عاشور (ج6/ص24).

نفسه؛ لأنّ التحكيم له قوة الشريعة، وأما أخذ غيره فلا يسوغ، إذ ليس لأحد أن يسترق نفسه بغير حُكم[1].

لاحظ الدقة اللفظية المعجزة: قال: ﴿مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾! تحرٍّ مذهل للصدق في الكلمة؛ فهو يعلم أن أخاه لم يسرق، فلم يصفه بالسرقة تورعاً وكذباً، بل وصف الواقع الحقيقي (أن المتاع وُجد عنده).

النهاية الحاسمة: ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾؛ إيثار للعدل وإغلاقٌ لجميع منافذ التفاوض.

*﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، بمعنى: اعتزلوا وانفردوا، وأصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط.

ومن استعمال الصحابة للخلاص بهذا المعنى ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما لما أراد عمر أن يخطب الناس في آخر حجة حجها فيحذرهم من قوم يريدون المزاحمة في الخلافة بغير حق: فحذره عبدُ الرَّحمٰن قالاً: يا أميرَ المُؤمِنينَ، إنَّ المَوسِمَ يَجمَعُ رَعاعَ النَّاسِ وغَوغاءَهم، وإنِّي أرى أن تُمهِلَ حتَّى تَقدَمَ المَدينةَ؛ فإنَّها دارُ الهِجرةِ والسُّنَّةِ، وتَخلُصَ لأهلِ الفِقهِ وأشرافِ النَّاسِ وذَوي رَأيِهم، قال عُمَرُ: لَأقومَنَّ في أوَّلِ مَقامٍ أقومُه بالمَدينةِ[2].

﴿اسْتَيْأَسُوا﴾: الزيادة في المبنى (السين والتاء) تدل على زيادة المعنى؛ أي بلغوا أقصى درجات اليأس وانقطاع الرجاء، و"نجياً" مصدر يعبر عن شدة التناجي والتخافت في المشورة.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾:
أخوهم الكبير: يذكرهم بالميثاق الإلهي الأول وبتقصيرهم القديم: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾. يظهر هنا الندم التاريخي والمسؤولية الأخلاقية، فيقرر عدم العودة: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾.

*﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ...﴾، إشراقة بلاغية وسياق الشك: تلقين للقصة بلا مواربة: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، ثم الاحتياط لأنفسهم معرفةً منهم بأن أباهم لن يصدقهم بسهولة: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (أي شهدنا بما رأينا من استخراج الصواع، ولم نكن نعلم الغيب أنه سيُستخرج من رحله).

ثمّ أكدوا صدقهم بـ: *﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ التي كنا فيها وَالعِيرَ التي أقبلنا فيها وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، (واسأل القرية/والعير) من باب إطلاق الجزء إرادة الكل فهو ما يطلق

(1) – أخرجه البخاري (3929)، وانظر ابن عاشور (ج6/ص27).

(2) – وانظر ابن عاشور (ج6/ص26).

عليه البلاغيون مجاز مرسل علاقة جزئية، والمراد أهل القرية وركاب العير، لتوسيع دائرة الشهود والإثبات.

موقف يعقوب عليه السلام: الحزن المضني واليقين الشاهق: *﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا...﴾

المقابلة والتكرار المقاصدي: يكرر يعقوب نفس كلماته التي قالها يوم أتوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، كأنه يذكرهم بذنبهم الأول، وسيظل يذكرهم به حتى يقولون له: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، وولعل من حكمة ذلك حثهم على الاستمرار في البحث عن يوسف فلا يملوا.

عمق الإيان: "الصبر الجميل" هو الصبر الذي لا شكوى فيه للمخلوق، ثم الرجاء التام: ينبثق الأمل وسط أعتى ظلمات الفقد: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (يوسف، وبنيامين، والأخ الكبير الذي بَقِيَ في مصر). هذا هو حسن الظن بـ ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

*﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

التصوير الأسلوبي والعاطفي: هنا الإنسانية في أصفى صورها. ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: الإعراض الجسدي يعكس الرغبة في الانفراد بالله والفرار من لوم البشر.

النداء البلاغي العميق: ﴿يَا أَسَفَىٰ﴾: إضافة الأسف إلى ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتأوه والندب. على الرغم من أن المصيبة الجديدة هي بنيامين، إلاّ أن المصائب يُهيج بعضها بعضاً فتفجر الحزن القديم الدفين على يوسف، وهو معروف عند العرب:

لقد لامني عند القبور على البكا

رفيقي لتذرافي الدموع السوافك

فقال: أتبكي كل قبر رأيته

لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الشجا يبعث الشجا

فدعني فهذا كله قبر مالك

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: البياض هنا هو الشفافية التي تجلل العين من كثافة الدمع وملازمة الحزن، و﴿كَظِيمٌ﴾: ممتلئ حزناً وغيظاً مكتوماً لا يبديه ولا يشكوه إلاّ لربّه.

*﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾: الإيجاز اللغوي البيغ:

حذف حرف النفي في قوله ﴿تَفْتَأُ﴾ وتقديره: (لا تفتأُ) أي لا تزال، وهو أسلوب عربي معروف إذا وقع الفعل بعد القسم.

﴿حَرَضًا﴾: الحرض هو الشخص المشرف على الهلاك الذي أذابه المرض والحزن حتى لا حراك به.

والمقصود بهذه اليمين (تالله) الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف عليهم السلام.

*﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، جوهرة السورة وقاعدة التوحيد النفسي: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر وقصر مقصورة على الله عز وجل.

﴿بَثِّي﴾: البث هو أشد الحزن الذي لا يصبر عليه صاحبه حتى يبثه وينشره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وَأَمَّا الشَّكْوَى إلَى الْخَالِقِ فَلَا تُنَافِي الصَّبْرَ الْجَمِيلَ؛ فَإِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} وَقَالَ: {إنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلَى اللَّهِ} وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ بِسُورَةِ (يُونُسَ) وَ (يُوسُفَ) وَ (النَّحْلِ) فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي قِرَاءَتِهِ فَبَكَى حَتَّى سُمِعَ نَشِيجُهُ مِنْ آخِرِ الصُّفُوفِ.

وَمِنْ دُعَاءِ مُوسَى: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ وَعَلَيْكَ التكلان وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ.

وَفِي الدُّعَاءِ الَّذِي دَعَا بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَعَلَ بِهِ أَهْلُ الطَّائِفِ مَا فَعَلُوا: {اللَّهُمَّ إلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي؛ وَقِلَّةَ حِيلَتِي؛ وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ؛ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي. اللَّهُمَّ إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؛ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي؛ غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي؛ أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ؛ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ؛ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ؛ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى؛ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ) –

وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ؛ فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ فَيَأْسُهُ مِنْهُ يُوجِبُ غِنَى قَلْبِهِ عَنْهُ[1].

(1) – ابن تيمية: مجموع الفتاوى (ج10/ص184).

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: إما من الرؤيا القديمة (سجود الكواكب)، أو من سعة الرحمة وحسن الظن برب العالمين، أو بالوحي، فإن يعقوب عليه السلام نبي يوحي إليه.

*﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

الفروق اللغوية الدقيقة: ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾، التحسس: هو طَلَبُ مَعرفةِ الأخبارِ والأحوالِ الغائبةِ، ويكون في الخير وتتبع أخبار الأحباء برفق ولين، بخلاف التجسس والذي قد يكون في الشر واستكشاف العورات، وهو المنهى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:12].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إيَّاكُم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحَديثِ، ولا تَحَسَّسوا، ولا تَجَسَّسوا، ولا تَنافَسوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَباغَضوا، ولا تَدابَروا، وكونوا عِبادَ اللهِ إخوانًا[1].

ويُستثنَى من التجسس المنهي عنه ما لو تَعيَّنَ ذلك طَريقًا لإنقاذِ إنسانٍ مِن هَلاكٍ أو نحْوِه.

الختام الإيماني العظيم: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾؛ "الرَّوْح" بالفتح: الفرج، والرحمة، والنسيم الذي يتنفس به المكروب.

الربط بين اليأس والكفر: جعل اليأس من فرج الله صفة ملازمة لغير المؤمنين ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، لأن اليأس من رحمة الله إساءة أدب مع الله الذي رحمته سبقت غضبه، ولأن الكفر يقطع الصلة بالقدرة الإلهية المطلقة والرحمة الواسعة التي تتجاوز أسباب البشر الضيقة.

قال الله: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف:156]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ اللهَ كَتَبَ كِتابًا قَبلَ أن يَخلُقَ الخَلقَ: إنَّ رَحمَتي سَبَقَت غَضَبي، فهو مَكتوبٌ عِندَه فوقَ العَرش [2].

قال الشاعر الفلسطيني العقيلان:

---

(1) – أخرجه البخاري (5143) باختلاف يسير، ومسلم (2563) وهذا لفظه.

(2) – أخرجه البخاري (7554)، ومسلم (2751) مختصرا باختلاف يسير.

لا يأس فاليأس كفر في عقيدتنا

وما ارتضينا سوى إسلامنا دينا

الخلاصة: هكذا تتحرك الآيات في هندسة بيانية مذهلة: تنطلق من التدبير والستر عند يوسف، لتصل إلى الارتباك والتكشف عند الإخوة، وتتوج بـ الشفافية واليقين الشاهق عند يعقوب عليهم السلام. إنها ملحمة تبيّن كيف يُدار العالم بالأسباب الظاهرة بينما تقود القدرة الإلهية الخفية كل اللقطات نحو غايتها الحكيمة.

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (94)قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ(95) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(103) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (104)وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ

الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(111)).

هذا مقطع ختامي في هذا الدرس فريد من نوعه في سورة يوسف عليه السلام، يُمثّل ذروة القصة، حيث تنفتح مغاليق الأزمة، وتنحل العقدة، وتنجلي غشاوة المحنة، وتشرق شمس الحقيقة والتمكين بعد ليل طويل من الصبر والابتلاء.

اعتراف بالحال.. وانكشاف الجمال: *﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

بلغ بهم الامر هذا الحد من الاسترحام، والضيق والانكسار، فرق لهم قلب يوسف عليه السلام، وقد انتهى الدرس الضروري وعقلوه، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لم تخطر لهم على بال؛ فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي العيد الذي يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه أحد إلاّ الله الذي صحبته معيته طوال تنوع محنته.

*﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾: (هل) مفيدة للتحقيق، بمعنى قد، في الاستفهام، فهو توبيخ على أفعالهم الذميمة بقرينة التوبيخ، وهي بالنسبة ليوسف عليه السلام واضحة، وأما بالنسبة لأخيه فهي ما كانوا يعاملونه به مع أخيه يوسف عليهم السلام من الإهانة التي تنافيها الأخوة، لكن يظهر حسن حلقه مرة أخرى فيعذرهم أنّ كل ذلك كان زمن جهالتهم: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [1].

*﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

انحلت العقدة إذن، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فيه تعريض لإساءاتهم بعد التصريح وعذرهم بالجهل، وفيه تعريض كذلك بأنهم قد صلح حالهم من بعد، وذلك إما علمه يوسف بوحي من الله، أو بالفراسة، فقد جاءوا حريصين على رغبات أبيهم في طلب فداء أخيهم بنيامين بعدما أخذ في حكم تهمة السرقة، وفي طلب سراحه في هذا الموقف مع الإلحاح، وكان يعرف منهم معاكسة أبيهم في شأنه، فعلم أنهم ثابوا إلى صلاح[2].

---

(1) – انظر سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2027)، وابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص33).

(2) – انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص33).

(مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ): التعبير بـ "المسّ" دون الإحاطة يوحي بالشدة التي تقترب ولا تستقر استقرار الهلاك، لكنه يعكس مجاعة ضاغطة. وجمعهم بين أنفسهم وأهلهم يعكس مأساة جماعية.

(بِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ): "المزجاة" هي القليلة المردودة، المعيوبة التي يُزجى بها (يُدفع بها بحياء لقلّتها)، وهي بضاعة لا تقبل عادة، لكن اضطرار الحال أجبرهم على عرضها.

(وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا): توسل بصيغة الاستعطاف بعد أن كانوا يملكون العزة والتعالي في بداية القصة؛ وهنا تظهر عجلة الأقدار كيف تقلب الأحوال.

(هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم...): يمهد يوسف عليه السلام للبوح بذكاء بارع؛ إنه يوقظ فيهم ضمائرهم النائمة، ويُعرّض بجريمتهم السابقة وهم في أضعف حالاتهم، ليكون العفو أبلغ في الوفاء.

(إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ): يلتمس لهم عذراً، والجهالة التي تعني هنا طيش الشباب وغلبة الهوى لا الجهل العقدي، وهو لُطف نبوي عظيم.

*﴿قالوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾: الاستفهام هنا للمفاجأة المذهولة؛ فقد تناهى إلى أطراف عقولهم الشبه لكنهم استبعدوه تماماً، إذ بين العبد المبيع في السياقات السابقة والعزيز المُهيب اليوم بون شاسع.

(قال أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي): توكيد صارخ (بـ "أنا") يمحو كل شك. وإبراز أخيه بنيامين بجانبه يوثق لحمة الدم.

قاعدة التمكين الرباني: لم يربط يوسف نجاحه لا بذكائه ولا غيره من أمور الدنيا، بل قال: (قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)؛ فالتطابق بين "التقوى" و"الصبر" هو مفتاح كل الفرج القرآني، وهو الإحسان: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

صفو العفو.. وبلسم التسامح: *﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، اعتراف بالخطيئة وإن كان متأخراً، وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من عاقبة الصبر والتقوى، يقابل يوسف عليه السلام خطأهم بالصفح والعفو، وإغلاق ملف الموقف الخجل، شيمة الرجل الكريم، وينجح يوسف عليه السلام في الابتلاء بالنعمة كما نجح قبل في الابتلاء بالشدة. إنه كان من المحسنين [1].

---

(1) – وانظر سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2027).

*﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ليتفرغ لشان أبويه وأهله فيأتي بهم من البدو:

*﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إشراقة بلاغية: (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا): إقرار بالفضل الإلهي أولاً، ثم اعتراف بالخطيئة (وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ) بأسلوب مؤكد باللام وقسم محذوف تقديره "والله إن كنا...".

*(قال لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ): كلمة "التريب" هي التوبيخ والتذكير بالذنب وتعيير الإنسان به. ونفي التريب مطلقاً في "اليوم" يعكس سموا نفسياً نادراً؛ إنه عفو من طراز نبوي فريد، عفو من يملك فيُعفو، ومن ينسى الجرح أمام جلال الموقف.

(يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ): لم يكتفِ بإسقاط حقه الشخصي، بل تضرع إلى الله أن يغفر لهم حق الخالق.

*(اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا): الدائرة تكتمل؛ فالقميص الذي مُزّق بدم كاذب، ولبس حزن يعقوب، يعود اليوم ليكون أداة للشفاء والنور. فكما كان سبباً للحزن الأكبر، جعله الله سبباً للسرور الأعظم.

فهذا فهو رد العجز على الصدر مرة أخرى، ولف ونشر غير مرتب كذلك، حيث بدأت القصة برؤيا يوسف عليه السلام، وقصها على أبيه، ثم يأتي القميص، وهنا جاء القميص، ثم سيأتي خبر تأويل الرؤيا لأبيه عليهم السلام.

كيف عرف يوسف عليه السلام أنّ رائحته سترد على أبيه بصره الكليل؟ ذلك مما علمه الله، والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة، وما لها لا تكون خارقة وهو يوسف نبي رسول، ويعقوب نبي رسول[1].

ريح يوسف.. وبشائر اليقين: *(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ).

إني لأجد ريح يوسف، لولا أنكم تتهمونني بالخرف، لصدقتم معي ما أجده من ريح الغائب البعيد، فلا يخطر على بال غير عليه السلام أن يوسف عليه من الأحياء بعد هذا الأمد الطويل، وأنّ له ريحاً يشمها أبوه عليهما السلام من بعيد.

*(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)، هؤلاء المحيطين بيعقوب عليه السلام لم يجدوا ما وجده من ريح ابنه الحبيب، فاتهموه بما خشي أن يتهمونه به.

---

(1) – وانظر المصدر والصفحة السابقين.

لكن المفاجأة البعيدة تقع، ويتبعها مفاجأة أعظم منها، بل مفاجآت؛ مفاجأة القميص وهي دليل على قرب لقياه، ومفاجأة ارتداد البصربع أن ابيضت عيناه: *(فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ)

هنا يذكر يعقوب عليه السلام حقيقة ما يعلمه من الله، تلك التي حدثهم بها من قبل فلم يفهموه: (قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُون).

*(قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)، ثابوا إذاً إلى رشدهم مرة أخرى واستعتبوا، ونلمح هنا في قلب يعقوب شيئاً من بنيه، وأنه لم يصف لهم، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويسريح:

*(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)، إشراقة بلاغية: حكاية عبارته بكلمة سوف لا تخلو من إشارة إلى قلب أب مكلوم.

وقيل: بل أخر الدعاء والاستغفار لهم إلى السحر، وهو الوقت الذي ينزل فيه ربنا جل وتعالى نزولا يليق بجلاله، فيقول (هل من داع فأستجيب له).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يَنزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالى كُلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبقى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يقولُ: مَن يَدعوني، فأستَجيبَ له؟ مَن يَسألُني فأُعطيَه؟ مَن يَستَغفِرُني فأغفِرَ له؟[1].

قمة التمكين.. وتحقق الرؤيا: *(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) إكرام لأبوية بالفعل، بأن رفعهم لعرشه، وإكرام للجميع بالقول (ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ).

فإن قيل: هل قال لهم يوسف عليه السلام: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ، بعد ما دخلوها؟

فالجواب: قيل: إن يوسف تلقَّى أباه تكرمةً له قبل أن يدخل مصر، فآواه إليه، ثم قال له ولمن معه: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين)، بها قبل الدخول، ففي الكلام تقديم وتأخير.

وقال آخرون: المقصود تقييد الدخول بآمنين، فالأمر في (ادخلوا) للدعاء كالذي في قوله تعالى (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) [الأعراف:49) [2].

---

(1) – أخرجه البخاري (1145)، ومسلم758) ، وانظر البغوي: معالم التنزيل (ص599) وسيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2027).

(2)–انظر تفسير الطبري (ج16/ ص264)، ابن عاشور: التحرير والتنوير(ج6/ص38).

*(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ).

قوله تعالى (وخروا له سجدا): كانت تحية الناس يومئذٍ السجود، ولَمْ يَكُنْ فِيهِ وَضْعُ الْوَجْهِ عَلَى الْأَرْضِ، إِنَّمَا كَانَ الِانْحِنَاءُ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَبْطَلَ ذَلِكَ بِالسَّلَامِ.

ثم يتوجه عليه السلام إلى ربه بالدعاء بالثبات حتى يلقاه *(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

(آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ): لفظ "آوى" يحمل دفء الحنان والأبوة والأمومة بعد وحشة الفراق الطويل.

(هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ): ربط البدايات بالنهايات؛ الرؤيا التي رآها وهو صبي صغير في مطلع السورة تتحقق حرفياً بعد عقود من الأبتلاءات بالسراء والضراء.

(وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ): البدو ضد الحضر، هو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم، سمي بدواً لأنَّ سكانه بادون، أي ظاهرون لكل وارد لا تحجبهم جدران المدينة، ولا تغلق عليهم أبوابها.

تجنب لوم إخوته إطلاقاً، بل حمّل الشيطان المسؤولية: (مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)، وهو استفادة من درس أبيه وتعليمه في صغره، ففيها برر وإيناس لأنبيه عليهما السلام: (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) ففيه تذكير لأنبيه بأنه عليه قد وعى الدرس.

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ): اللطف الإلهي يتجلى في خفايا الأقدار؛ فالمحنة التي تبدو في ظاهرها هلاكاً، كانت هي الطريق الممهد للعرش.

الخاتمة الكبرى.. وعِبر للأولي الألباب: *(ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ) يا محمد صلى الله عليه وسلم، (إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) أي: عزموا على إلقاء يوسف عليه السلام في الجب، (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) بيوسف.

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ): روي أن اليهود وقريشاً سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف، فلما أخبرهم وكانت موافقة للتوراة لم يسلموا، فحزن النبي صلى الله عليه وسلم، فقيل له: إنهم لن يؤمنوا ولو حرصت على إيمانهم.

تسلية ربوية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الإعراض ليس نقصاً في بلاغته، بل هي طبيعة البشر الغافلة.

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ) على تبليغ الرسالة ودعوتهم إلى الله تعالى (مِنْ أَجْرٍ ۚ) جعل، وجزاء، (إِنْ هُوَ) أي: القرآن، (إِلَّا ذِكْرٌ) موعظة وتذكير (لِّلْعَالَمِينَ).

إلى قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

(وَكَأَيِّن) وكم، (مِّنْ آيَةٍ) عبرة ودلالة، (فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

*(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ)، فكان من إيمانهم ما ذكره الله عنهم (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [الزمر:38]، (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) [الزخرف:87]، (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [العنكبوت:63].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهما نزلت في تلبية المشركين في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك له، إلاّ شريكا هو لك، تملكه وما ملك.

*(فَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ) أي: عقوبة مجللة، قال مجاهد: عذاب يغشاهم، (مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) فجأة وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) بقيامها، قال ابن عباس: تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم.

*(قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي) الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها (أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ): البصيرة: هي المعرفة التي تميز بها بين الحق والباطل، (أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

(مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ) أي: من أهل الأمصار والحواضر لا البوادي، لأنّ أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم، (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ) يعني: الأمم المكذبة فيعتبرون، (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ) قيل معناها الحال الآخرة، كل غد خير من اليوم قبله في ترقي الدعوة وزيادة المؤمنين، (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فتؤمنون.

عن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ زوَى لي الأرضَ فرأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها فإنَّ أُمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زوَى لي منها[1].

(1)–أخرجه مسلم (2889)، وأبو داود (4252)، والترمذي (2176) باختلاف يسير.

عن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يترُكُ اللَّهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدخَلَه اللَّهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذليلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ به الكُفرَ) .وكان تميمٌ الدَّاريُّ يقولُ: قد عرَفْتُ ذلك في أهلِ بيتي، لقد أصاب من أسلَمَ منهم الخَيرَ والشَّرَفَ والعِزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافِرًا الذُّلَّ والصَّغارَ والجِزيةَ [1].

(حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

إنها اللحظة التي يبلغ فيها البلاء مداه، وتوشك القلوب على اليأس الظنّي البشري، فيأتي النصر الإلهي حاسماً مدوياً. إنها سنة التمكين: لا يأتي النصر إلا على حافة اليأس من غير الله.

والزيادة في المبني تدل على الزيادة في المعنى، فقد بلغ اليأس غايته وذروته، كما قال سبحانه: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة:214].

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شَكَونا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو مُتَوسِّدٌ بُردةً له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلنا له: ألا تَستَنصِرُ لَنا؟ ألا تَدعو اللهَ لَنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمَن قَبلَكُم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيوضَعُ على رَأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرَمَوتَ، لا يَخافُ إلَّا اللهَ، أوِ الذِّئبَ على غَنَمِه، ولَكِنَّكُم تَستَعجِلون [2]..

*(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ): القصة لم تُسرد للتسلية التاريخية، بل لتكون دستور حياة، ومنهج صبر، وميزان يقين لكل من وفقه الله لتعقل

(1)–رواه أحمد (16957) واللفظ له، والطبراني (58/2) (1280)، والحاكم (8326). صحَّحه الحاكمُ على شرط الشيخينِ، وصحَّح إسنادَه على شرط مسلم: شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (16957)، وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (158): (على شرطِ مسلمٍ، وله شاهدٌ على شرطِ مسلمٍ أيضًا)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (17/6): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

(2)–أخرجه البخاري (3612)، من أفراد البخاري على مسلم، وانظر البغوي: معالم التنزيل(ص600) فما بعدها.

الآيات، فجاءت الآية بليغة قاطعة: (وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

*

سورة الرعد

مقدمة

يقول محمد قطب رحمه الله: وفي السورة خلاف بين المفسرين في كونها مكية أو مدنية. وقد رجح صاحب الظلال أنها مكية". ثم ذكر أنّهُ يذهب إلى ما ذهب إليه أخوه من أنّ سورة الرعد مكية، ويسوق الترجيحات على ذلك[1].

موضوع سورة الرعد: يدرس سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) بديباجة رائعة، يذكر فيها أن موضوع السورة الرئيسي ككل موضوع للسور المكية كلها – على وجه التقريب – هو العقيدة وقضاياها؛ توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعاً. ومن ثم قضية الوحي وفضية البعث .. وما إليها. ويشير إلى أن الذي يختلف من سورة إلى سورة في القرآن المكي إنما يكون في عرضها لقضية العقيدة، إنما هو طريقة العرض. فهذه السورة – سورة الرعد – تعرض قضية العقيدة وحولها إطار، وهو هذا الكون كله بكل ما فيه من عجائب هي براهين هذه القضايا وآياتها في الإدراك البشري البصير المفتوح [2].

ويتفق الأستاذ محمد قطب مع أخية في أن موضوع سورة الرعد هو موضوع السور المكية، العقيدة، لكنه يذكر القضايا الرئيسية التي تعالجها هذه السورة، فيقول: هي إنكار العرب المشركين للوحي والرسالة، وأنكارهم للبعث، ثم طلبهم الملح من الرسول –صلى الله عليه وسلم – أن يأتيهم بآية، وتعليق إيمانهم وإتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم على نزول تلك الآية، ثم يقول: "وهذا الذي يرجح أنها سورة مكية، فقد كان الإلحاح في طلب الآية، واهتمام الرسول – صلى الله عليه وسلم– بهذا الطلب،

([1]) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص146، 147).
([2]) – سيد قطب: في ظلال القرآن (ص4/ 2039 - 2040).

وتمنيه لو أنّ الله استجاب لهم فأنزل لهم الآية التي يريدونها.. كل هذا كان في العهد المكي كما تشير إليه هذه الآيات المكية على سبيل المثال[1].

إشراقات بلاغية: "يريد الله جل جلاله أن يبرز معنى: أن الله وحده يستجيب لمن يدعوه، وينيله ما يرجوه، وأن الآلهة التي يدعونها مع الله لا تملك لهم شيئاً، ولا تنيلهم خيراً، ولو كان الخير قريباً، فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة:

*(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) [2] .

وهي صورة تلح على الحس والوجدان، وتجتذب إليها الالتفات، فلا يستطيع أن يتحول عنها إلاّ بجهد ومشقة؛ وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ: شخص حي شاخص، باسط كفيه إلى الماء، والماء منه قريب، يريد أن يبلغه فاه، ولكنه لا يستطيع، ولو مد مدّة فربما استطاع![3]".

ثم بعد أن ذكر الأستاذ محمد قطب – رحمه الله – ذلك، يقرر أن القرآن يخاطب الوجدان قبل العقل، لان المطلوب من المخاطبين هو اختيار الإيمان والتسليم لله جل وتعالى، فيقول:

"إن للقرآن طريقته الخاصة في معالجة هذه القضايا. طريقة لا تخاطب الذهن المجرد، ولكنها تخاطب (الإنسان) كله، وتخاطبه – أول ما تخاطبه – من طريق الوجدان. ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة في الأمر، ولكنها لا تخاطبه منفرداً، إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستجاش، فيأخذ دوره في التلقي منفعلاً بالقضية، متحركاً للإيمان بها، لا مجرد مساجلٍ فيها بالمنطق والبرهان".

---

(1) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص148).
(2) – سورة الرعد، آية (14).
(3) – سيد قطب: التصوير الفني في القرآن (ص41).

ثم يبين –رحمه الله – لماذا يقدم القرآن الوجدان على العقل؟ فيقول: "والله خالق هذه الفطرة يعلم أنّ العقل ليس هو في الحقيقة الذي يختار! أو ليس وحده الذي يختار! إنما يختار الإنسان في مجموعه، وأن لحظة اتخاذ القرار، هي اللحظة التي يصل فيها الوجدان إلى قمة انفعاله، والعقل عندئذ خادم يخدم اتخاذ القرار".. والباب الاكبر لتحريك الوجدان، وتحريك العقل كذلك لينفعل مع الوجدان هو عرض آيات القدرة الربانية في كل مجال: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت:53].

تسمية السورة

(سورة الرعد) سورة الرعد ليس لها إلاّ اسم توقيفي واحد مشهور ومعتمد عند السلف وفي كتب التفسير والمصاحف.

القول الأول (الراجح) :أنها مكية بأكملها، وهو قول جمهور المفسرين واختيار ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري؛ نظراً لموضوعاتها التي تشبه السور المكية في تقرير العقيدة والتوحيد.

أما عدد آياتها فهي عند أهل الكوفة 43 آية (وهو العدد المشهور في المصاحف المعاصرة)، وفي العد البصري 45 آية، وعند أهل الشام هي 47 آية، وعند مدرسة الحجاز (مكة والمدينة) 44 آية، وهذا الاختلاف إنما هو في عد الفواصل، مثل قوله تعالى (المر) فهي عند بعض المدارس آية مستقلة وعند المدارس الأخرى تحسب مع ما بعدها آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(المر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1)اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(5)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (11) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ(13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩(15)).

بتلك المقدمة يبدأ الأستاذ محمد قطب الحديث عن سورة الرعد، ثم يبدأ مع الآيات الأول منها: *﴿المر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

﴿المر﴾: الحروف المقطعة للتحدي والإعجاز. تركيب أربعة حروف تنبثق منها أصوات مختلفة (مجهورة، مهموسة، شديدة، رخوة) تنبيهاً للسامع: «إن هذا القرآن المكون من جنس أحرفكم يعجزكم تركيب مثله».

التنكير والإشارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾: باسم الإشارة البعيد ﴿تِلْكَ﴾ لإفادة العظمة ورفعة المقدار، والتعريف بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ لإغناء المعنى عن غيره، وقال البغوي رحمه الله: أي تلك الأخبار التي قصصتها عليك آيات التوراة والإنجيل والمكتب المتقدمة.

﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني هذا القرآن الذي أنزل إليك ﴿مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي: هو الحق فاعتصم به.

الاستدراك بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: "لكن" ترفع ما قد يتوهمه السامع؛ فإذا كان هذا الكتاب حقاً ساطعاً فلماذا يتخلفون؟

قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمداً يقوله من تلقاء نفسه، فرد عليهم قولهم.

بهذا الأسلوب الهادي الحاسم في ذات الوقت يقرر القضية الأولى التي ينكرها المشركون، وهي قضية الوحي، ويقرر كذلك موقفهم منها، أنهم (لا يؤمنون) بها.

ثم بدلاً من أن يناقشهم في موقفهم ذلك ليبين لهم بالدليل العقلي أنهم مخطئون وأنهم ليسوا على شيء.. إذا به كأنه يترك القضية جملة وينتقل إلى قضية أخرى جديدة بالمرة، قضية دلائل ربوبيته؛ الخلق والاستواء على العرش، وتسخير الشمس والقمر.

*(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ).

ولكن أهي حقا قضية جديدة مختلفة؟ وهل ترك القضية الأولى؟ إنها القضية ذاتها في الحقيقة ولكن القرآن يعالجها بطريقته الخاصة.

(الله).. وذلك هو مفتاح القضية! فالقضية في ظاهرها إنكار العرب للوحي، ولكنها في حقيقتها – كما يعلمها الله – هي جهلهم بحقيقة الألوهية! فلو أنهم عرفوا الله حق المعرفة ما استغربوا أن ينزل الله كتاباً على أحد من خلقه بطريق الوحي، وما أنكروا كل ذلك الإنكار.

والمفاجأة التي تلقيناها لأول وهلة هي واحد من عوامل الإيقاظ التي يوقظ بها القرآن الحس المتبلد، مفاجأة الرد على إنكار الوحي بلفظ الجلالة (الله)".

ثم يشير الأستاذ محمد قطب رحمه الله إلى الالتفات في الآية من الماضي إلى المضارع، فيقول: "ولقد يخيل إلى الحس الغافل أنّ ذلك قد تم – ذات مرة – وانتهى الأمر! ثم أصبح الكون من تلقاء نفسه يسير، مدفوعاً بتلك الدفعة الأولى بغير إرادة مباشرة من الله! والسياق يرده إلى الحقيقة.. أن الله "حاضر" في تدبير الكون هذه اللحظة كحضوره في الأزل الذي لا يستوعبه إدراك البشر، وفي الأبد الذي لا تستوعبه

الأفهام، وعندئذ فلا مجال للنسيان، فتدبير الله للكون في كل لحظة، وفي هذه اللحظة، وقدر الله حاضر دائما في كل حدث يتم في هذا الكون".

ومن معاني (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) قضاء أحوال الكون والكائنات وتصريفها وإدارة أمرها من رزق وحياة وموت وحفظ وتغيير وغير ذلك.

إلى أن قال: "ويستوقفنا التعبير: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم)، إنه لا يقول (يدبر الأمر ويفصل الآيات، بل يقول بغير عطف (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)، وكأنما الأمران لهدف واحد، يدبر الأمر لعلكم بلقاء ربكم توقنون،.. ويفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون، ولذلك يجمع بينهما السياق بغير فاصل، لأن بينهما – كما يقول البلاغيون – تمام اتصال[1].

*﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾: إشراقة بلاغية: الالتفات والامتداد ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾: المقابل لرفع السماء. البسط والمد ينسجم مع الرؤية البصرية للإنسان حيثما سار.

المقابلة والبديع: ﴿رَوَاسِيَ﴾ (جبال ثوابت) ﴿أَنْهَارًا﴾ (جاريات متحركة)، ﴿اللَّيْلَ﴾ ﴿النَّهَارَ﴾.

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (تضاد وتكامل)، الإغشاء ﴿يُغْشِي الليل النهار﴾، هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية؛ تشبيه الليل بعباءة أو غطاء يُسدل على النهار ليتوارى ضوؤه، وفيه دلالة على الإحاطة التامة والسيطرة الكلية.

النظرة السياقية: اختتمت الآية بـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، لأن حركة الأرض والجبال والزوجية تتطلب الفكر والاستنباط الممتد للوصول إلى الحكمة من ورائها.

*﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾.

([1]) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص149 - 153) .

هذا المشهد متكرر، تمر عليه العيون في غفلة النفوس، ولكنه يعرض هنا كأنه جديد، وإنه لكفيل حين تتملاه العين أن يوقع في النفس تأثراً وجدانياً خاصّاً.

﴿قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾: التجاور يقتضي التماثل عادة، لكن الاختلاف في خصائص التربة والثمار مع التجاور الشديد دلالة على يد الفاعل المختار سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾.

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: الصنو هو النخلتان أو الأكثر يخرجن من أصل واحد (جذر واحد). التباين يقع حتى في الفرعين النابتين من أصل واحد!

وقال أهل التفسير: صنوان أي مجتمع، وغير صنوان: متفرق، ومنه قول النبي صنو أبيه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَقِيلَ: مَنَعَ ابْنُ جَمِيلٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَالْعَبَّاسُ عَمُّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ، وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ، وَمِثْلُهَا مَعَهَا» ثُمَّ قَالَ: «يَا عُمَرُ، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟»[1].

قال محمد فؤاد عبد الباقي في شرح صحيح مسلم: (صنوا أبيه) أي: مثله ونظيره يعني أنهما من أصل واحد يقال لنخلتين طلعتا من عرق واحد صنوان ولأحدهما صنو ويكون جمعه على صورة مثناه المرفوع ويتميزان بالإعراب]

بناء المجهول ﴿يُسْقَى﴾: لتركيز الانتباه على الفعل المادي المشترك (الماء)، ليتجلى التفاوت العجيب في النتيجة ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بالنون المنسوبة لعظمة الذات الإلهية.

ختم الآية بـ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأن التمييز بين المتشابهات والتفريق بين الأشباه والنظائر وظيفة العقل الحاسمة![2]"..

*﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: قال ابن عاشور - رحمه الله -: كثيراً ما يستعمل الله جل وتعالى آيات الخلق وجمال الكون في إثبات البعث.

إشراقة بلاغية: الشرط والتأكيد: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾: صياغة تفيد أقصى درجات الغرابة. عجبتَ من عدم إيمانهم رغم الآيات المشاهدة؟ فالأعجب هو استبعادهم للبعث بعد أن شهدوا خلق السماوات والأرض!.

([1]) – أخرجه مسلم (983).

([2]) – سيد قطب: التصوير الفني في القرآن (ص67).

وهو قريب من الأسلوب العربي الجميل المعروف في مثل قول ابن الرومي:

ما أنس لا أنس . .. .

قال البغوي رحمه الله: وَمَعْنَاهُ: إِنَّكَ إِنْ تَعْجَبْ مِنْ إِنْكَارِهِمُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِابْتِدَاءِ الْخَلْقِ [مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ]، فَعَجَبٌ أَمْرُهُمْ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِابْتِدَاءِ الْخَلْقِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْقُلُوبِ أَنَّ الْإِعَادَةَ أَهْوَنُ مِنَ الِابْتِدَاءِ، فَهَذَا مَوْضِعُ الْعَجَبِ[1].

إشراقة المقابلة البلاغية: الاستفهام الإنكاري المزدوج منهم ﴿أَإِذَا... أَإِنَّا﴾، والرد الحاسم ببدء صريح: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وانتقال لحظي مفاجئ من حكاية حديثهم ليشاهدوا حالهم يوم القيامة ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، لم يقل "عليهم أغلال"، بل نقل مشهد الأغلال ملازمة لأعناقهم، وهو تعريض لأغلال الجهل والتقليد التي قيدت عقولهم في الدنيا، فاستحالت أغلالاً حقيقية من نار في الآخرة، وأنذار لعلهم يستعتبون ويرعوون عن غيهم.

*﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾، السيئة هاهنا هي: العقوبة، والحسنة: العافية، ذلك أن مشركي مكة لفرط تكذيبهم كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم، ويلحون في طلب الآيات التي في العادة بعدها العذاب والهلاك إن لم يؤمنوا بها، وذلك في مثل قولهم الذي حكاه الله عنهم الله في قرآنه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32].

وفي مثل قوله تعالى عنهم: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ) يتكرر طلب الآية مرتين في هذه السورة.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾، (المثلات) جمع مَثُلة (بفتح الميم وضم الثاء)، وهي العقوبة الفاضحة المُنَكّلة التي تجعل صاحبها مثَلاً يُضرب للآخرين.

الجملة في موضع الحال، قال ابن عاشور رحمه الله: وهو محل زيادة التعجب، لأن ذلك قد يعذرون فيه لو كانوا لم يروا الأمم المعذبة مثل عاد وثمود، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:137-138]، ذلك من سافر من المدينة إلى الشام، مر على سدوم قرية قوم لوط.

مقابلة المغفرة بالعقاب: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ للناس على ظلمهم﴾، يقول ابن عاشور رحمه الله: وهذا كشف لغرورهم بتأخير العذاب عنهم رغم ظلمهم، لأنّهم لما

([1]) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص604).

استهزأوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعرضوا لسؤال حلول العذاب بهم، ورأوا أنّه لم يعجّل لهم حلوله اعترتهم ضراوة بالتكذيب، وحسبوا تأخير العذاب عجزاً من المتوعد، وكذبوا النبي صلى الله عليه وسلم، وهم يجهلون أن الله حليم، يمهل عباده لعلهم يرجعون.

فالمغفرة هنا مستعملة في المغفرة المؤقتة، وهي التجاوز عن ضراوة تكذيبهم، وإنّما تأخير العذاب إلى أجل.

كما في قوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) الدخان:15]، أي: عذاب الدنيا، وهو الجوع الذي أصيب به قريش بعد أن كان الله سبحانه وتعالى يطعمهم من جوع.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ضد تلك المغفرة، وهو العقاب المؤجل في الدنيا، أو عقاب يوم الحساب، فمحل الظلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن على الشرك[1]..

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ شَقَّ ذلِكَ علَى المسلِمينَ فقَالوا: يا رسولَ اللَّهِ وأيُّنا لا يظلِمُ نفسَهُ؟ قالَ: ليسَ ذلِكَ إنَّما هوَ الشِّركُ ألَم تسمَعوا ما قالَ لقمانُ لابنِهِ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[2].

*﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾،

قال محمد قطب - رحمه لله -: تلك هي القضية التي أشارت إليها الآية السابقة من خلال ذكر السيئة (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ)، إنهم يريدون آية تنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعلقون إيمانهم – في زعمهم – بتزول تلك الآية، ولو جاءتهم الآية ما آمنوا.

وهو سؤال يتكرر كما في آخر هذه السورة، وكما في سورة الأنعام: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:109].

---

(1) – انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص65-66).
(2) – أخرجه الترمذي (3067) واللفظ له، صححه الألباني، وأخرجه البخاري (3360)، ومسلم (124) باختلاف يسير.

ولكن السياق هنا يجيبهم إجابة غير مباشرة، تعرفهم بطبيعة الرسالة ودور الرسول – كل رسول – صلى الله عليهم وسلم، ليست مهمته أن ينزل الآيات، ولا ذلك من شأنه.

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾: هذه مهمته وإخوانه من الرسل صلى الله عليهم وسلم، وهنا التفات جميل، فالقرآن لا يخاطب المشركين، ولا يسترسل في خطابهم، كما هو الحال في سورة الأنعام حيث التفت بالخاطب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، وهنا التفت بالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم كذلك.

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: وهنا يورد محمد قطب - رحمه الله - سؤالاً: إنّ الإنذار والهداية، هداية الإرشاد والدلالة هما معاً مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أنها مهمة كل رسول: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:188]، وغيرها من الآيات، فكان المتوقع أن يقول السياق: إنما أنت نذير وهاد لهؤلاء القوم.

ويجيب رحمه الله: بأنّ في السياق تعريض بهؤلاء الذين يسألون الآيات أنهم لن يتلقوا من النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ الإنذار فقط، وأن قوماً آخرين هم الذين سيكون نصيبهم الهداية على يده صلى الله عليه وسلم[1].

فيكون هذا قريباً من معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:36]، أي: سماع تفهم، وقبول، وإصغاء للحق، وهم المؤمنون الذين انتفعوا بالهدى وآمنوا به.

إشراقة بلاغية: ﴿إِنَّمَا﴾: تقرير لمهمة الرسول وتجريدها من مقترحاتهم المعاندة. وظيفتك هي الإنذار لا الإجبار ولا الإتيان بالمعجزات المقترحة للهوى.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: إيجاز حذف وتعميم؛ الهادي هو الرسول، أو الداعي، أو الحق والقرآن. قرأ ابن كثير بالتنوين وصلاً مثل جمهور القراء، لكن وقف بياء مدية (هادي).

الشمول العلمي المطلق لله تعالى: *﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (8) (9) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)﴾:

(1) – انظر محمد قطب: دراسات قرآنية (ص160-161).

التناهي في الخفاء (مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ / مَا تَغِيضُ الأرحام) أي: تنقص (وما تزداد)، ثم الشمول العلمي المطلق مع التناهي في السعة والقياس (وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ)،

ما تغيض الأرحام، قيل: ما تنقصه الأرحام من مدة الحمل عن المعتاد (9 أشهر)، (وما تزداد) أي ما تزيد فيه مدة الحمل، كأن تضع المرأة بعد عشرة أشهر.

ثمّ التساوي بين المتضادات (أَسَرَّ) يقابله (جَهَرَ) | (مُسْتَخْفٍ بالليل) يقابله (سَارِبٌ بالنهار)

إشراقة بلاغية: (تَغِيضُ ... تَزْدَادُ): الطباق بين النقصان والغور وبين الزيادة والاتساع.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ): الأسماء الحسنى المقترنة {الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}: جاءت بصيغ الفخامة للبناء على استعلاء العلم الإلهي فوق حوادث الخلق.

(مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ): السارب هو الظاهر المتقلب في السرب (الطريق) بكل حرية. تقابل بين الظلمة والستر وبين الضياء والانتشار؛ وهما عند الله في العلم والشفافية سواء.

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ): إنّ المقادير الكونية مرتبطة بأوقاتها وأسبابها فلا تقدم ولا تأخر، وهو ما يبعث بالطمأنينة الكاملة في قلب السالك لله.

*(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﷻ): عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهارِ ويجتمعون في صلاةِ العصرِ وصلاةِ الفجرِ، ثمَّ يعرُجُ الَّذين باتوا فيكم فيسألُهم وهو أعلمُ بهم : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يُصلُّون وأتيناهم وهم يُصلُّون [1].

*(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ): الحفظ بأمر الله بملائكة الله، يحفظون من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، أي: يقونه أضرار الليل من اللصوص والهوام ذوات السموم وحتى القرصة، ومن السقطات والعثرات وأضرار النهار، أي يقونه مخلوقات الله، وهذا منّة منه سبحانه على عباده بلطفه بهم وإلا لكان أدنى شيء يضر بهم. ما لم يأت المقدور، فإذا جاء لمقدور خلوا عنه[2].

([1]) – أخرجه البخاري (7486) واللفظ له، ومسلم(632) .

([2]) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص606)، ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص62).

ويحفظون ويسجلون عليه أفعاله: *(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) [الإنفطار:9-12].

ثم قيل لهؤلاء جميعاً: *(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ) قال البغوي: من العافية والنعمة، (حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) من الحال الجميلة فيعصوا ربهم.

ويثير محمد قطب - رحمه الله - هنا سؤالاً آخر، فيقول: فما الصلة يا ترى بين أجزاء الآية الثلاثة؟ أو بين تلك القضايا الثلاث المتوالية في الآية؟

ثم يجيب رحمه الله: إن هناك جسراً خفياً يربط بينهما جميعاً، وإن لم يبد واضحاً من أول وهلة.

فهذا علم الله الشامل يطلع على ما في القلوب، هذه هي القضية الأولى، والقضية الثانية أنه بمقتضى هذا العلم الشامل يعلم الله ما بأنفس الناس، فيعلم أنهم غيروا ما بأنفسهم، فإذا علم أنهم غيروا فإنّه سبحانه يغيّر لهم حالهم، ولا يغيّر الله الحال إلاّ إذا علم أنّ الناس قد غيروا ما بأنفسهم سواء إلى الخير، فيغير بخير، أو إلى الشر فيغير بشر.

وهنا تأتي القضية الثالثة متصلة بما قبلها تماما: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ إذا علم أنهم غيروا بشر غير لهم بشر، وعندئذ، عندما يريد بهم سوءاً جزاء ما غيروا بالسوء – فلا مرد لإرادته، وما لهم من دون الله من يحميهم من إرادة الله [1].

وهكذا تنتهي الجولة مع علم الله الشامل إلى هذا التهديد للذين يستعجونك بالسيئة قبل الحسنة، ذلك أنهم إن أصروا على موقفهم فإن الله سيريدهم بسوء لا مرد له، ولن يكون هناك من يحميهم مما أراده الله.

يُصَدِّقُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:5]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:17].

الإيجاز والتعبير بالجمع (بِقَوْمٍ): يدل على أن مصائر الجماعات والأمم ترتبط بحركتها النفسية والفكرية الجماعية.

المشهد الكوني المهيب (البرق والرعد): *﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾

([1]) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص164-165).

الصورة البيانية والتشخيص: التشخيص الجمالي: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾: هذا الصوت الكوني الصارم والزئير هو تسبيح لله بحمده، وهو من جملة الكون الذي يسبح بحمده سبحانه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:44].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: قَرَصَت نَملةٌ نَبيًّا مِنَ الأنبياءِ، فأمَرَ بقَريةِ النَّملِ فأُحرِقَت، فأوحى اللهُ إليه: أن قَرَصَتكَ نَملةٌ أحرَقتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ! [1].

وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا قضى اللَّهُ الأمرَ في السَّماءِ ضربَتِ الملائِكَةُ بأجنحتِها خُضعانًا لقَولِهِ ، كأنَّهُ سِلسِلةٌ علَى صَفوانٍ [2].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنِّي أرَى ما لا ترَونَ وأسمعُ ما لا تسمَعون ، أطَّتِ السماءُ وحق لها أن تَئِطَّ ؛ ما فيها موضِعُ أربعِ أصابِعَ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهَتَهُ لله ساجدًا. واللهِ لو تَعلمونَ ما أعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قليلًا ولبَكَيتُمْ كثيرًا، وما تَلَذَّذْتُمْ بالنساءِ على الفُرُشِ ، ولخَرَجْتُمْ إلى الصَّعُدَاتِ تجْأَرونَ إلى اللهِ . لوَدِدْتُ أنِّي كنتُ شجرةً تُعْضَدُ [3].

التقابل النفسي ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: خوفاً من الصواعق والهدم، وطمعاً في الغيث والخير. التعبير بالحسبان النفسي للإنسان في نفس اللحظة.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾، المحال والمماحلة، وهي شدة القوة والمكر والمحاربة والقدرة على المحاقبة، فلا يغتر مجادل بجداله وهو في قبضة القادر، قال علي – رضي الله عنه – شديد الأخذ.

يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله: هل أحسست جو العنف والرهبة في البرق والرعد والصواعق. . والملائكة التي تسبح من خيفته؟.

إنّ هذه الجولة تجيء في جو التهديد، فيرتفع نبضها وترتفع حدة الأصوات فيها حتى ليصبح التسبيح صوتاً يصمّ الآذان، فما بال الوعيد! وتعرض الملائكة مذعورة خائفة تسبح من الخوف في هذا الجو المائج بالبرق والرعد والصواعق التي يرسلها الله فيصيب بها من يشاء! وبينما ذلك كله حادث، إذا هم يجادلون في الله.

---

(1) – أخرجه البخاري (3019) واللفظ له، ومسلم(2241) .
(2) – أخرجه البخاري (4800).
(3) – أخرجه ابن ماجه (4190)، وأحمد (21516) باختلاف يسير، وصحح الألباني من قوله (أطت السماء) إلى (أو ساجد) بشواهده، والباقي قال الترمذي: حسن غريب.

والجدل في الله، وقدرته سبحانه وتعالى على البعث والإحياء، وقدرته على إنزال آية متى يشاء، وقدرته على تنزيل ما ينزل من الوحي، هذا الجدل كله أمر سخيف بالغ السخف بعد الآيات المعجزة التي جاءت في الجولة الأولى والثانية، ولكنه أشد سخفاً وأشد ضياعاً كذلك في جو البرق والرعد والسحاب الثقيل الذي يحمل في طياته الصواعق المنقضّة التي يمكن أن تصيبهم في أية لحظة!.

﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾: شديد القوة، لا يغلب، ولا ينجح من يغالبه، ثم تتجسم صورة الضياع الكامل في الآية التالية [1]:

*﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾

أرأيت الضياع الكامل؟ هؤلاء القوم يتركون الله الذي له دعوة الحق، دعوة التوحيد، الله الخالق القادر المدبر، الذي خلق هذا الكون الهائل، والذي علمه هو ذلك العلم الشامل، والذي يرسل الصواعق، يتركون دعوة الله المسحق للتوحيد مجيب الدعاء، ويدعون من لا يستجيبون لهم بشيء، فأي ضلال بعد هذا؟

لكن السياق يستدرجهم!، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ . . هل انتهى الأمر، وانتهت الصورة التي يصورهم بها؟ كلا! إنهم يقول عنهم ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إلاّ. . .﴾

وهنا تنفتح العيون، وترهف الآذان السمع. . هل ستحدث استجابة من نوع ما؟ نعم! ولا! . . إنها استجابة أسوأ من عدم الاستجابة: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾.

إنها صورة عجيبة حقا. . هذا شخص عطشان، يريد أن يشرب، لكنه لا يشرب أبداً، لأنه لا يتجه الاتجاه الصحيح الذي يوصله للشرب رغم وجود الماء! إنه يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، ولكن بسط الكفين بهذه الصورة لا يرفع الماء إلى فمه أبداً، فيظل واقفاً هكذا.. الماء في متناوله وهو عطشان، لكنه لا يتجه الاتجاه الصحيح إليه، فيظل على الدوام عطشاناً!.

في الصورة المقابلة كل الكون ساجد غير أولئك الحفنة، فيها كناية عن غنى الله جل وتعالى، الغنى الطلق، وفيه تعريض، بل تهديد خفي لهؤلاء الجامحة أهواؤهم عن الله جل وتعالى [2]:.

*(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩)

---

(1) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص165).
(2) – انظر المصدر السابق.

إشراقة بلاغية: تقديم الجار والمجرور (وَلِلَّهِ): للحصر والقصر؛ فلا خضوع حقيقي ولا استسلام كلي في نهاية المطاف إلا له.

توزيع الخضوع (طَوْعًا وَكَرْهًا): المؤمن يسجد طائعاً بقلبه وجسده، والكافر مسخر مقهور لقوانين الله الجسدية والكونية التي لا يستطيع الخروج عنها.

تجسيد الظلال (وَظِلَالُهُم): إسناد السجود للظلال؛ فالظل يمتد وينكمش تبعاً لحركة النور والشرق والغرب، وهو سجود انقياد واستسلام تكويني، وآية من آيات الله الدالة على عظمته ولطفه وقدرته.

الزمان (بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ): طرفي النهار (الصباح والمساء)؛ لاستغراق الأوقات كلها في مشهد الخضوع العالمي الشامل لله رب العالمين.

(والآصال) جمع الأُصل – بضم الهمزة، والأصل جمع الأصيل، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس [1].

(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(18) أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(25))

الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة الرعد ذروة التماسك النصي والبياني في القُرآن الكريم؛ حيث تتدرج من إقامة الحجة العقليّة والكونية على وحدانية الله، إلى ضرب الأمثال المائية والنارية للتفريق بين الحق والباطل، ثم تنتقل إلى المقارنة

(1) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص607).

السياقية بين جزاء المستجيبين وصفاتهم البلاغية والأسلوبية، وجزاء الناكثين ومصيرهم.

وتبدأ بالتبكيت بالحجة والتعجيز العالي: *﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

*﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: خَالِقُهُمَا وَمُدَبِّرُهُمَا [فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ]، لِأَنَّهُمْ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خالقهم وخالق السموات وَالْأَرْضِ، فَإِذَا أَجَابُوكَ فَقُلْ أَنْتَ أَيْضًا يَا مُحَمَّدُ: "اللَّهُ".

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ هَذَا لِلْمُشْرِكِينَ عَطَفُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا: أجِبْ أَنْتَ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ إِلْزَامًا لِلْحُجَّةِ: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ مَعْنَاهُ: إِنَّكُمْ مَعَ إِقْرَارِكُمْ بِأَنَّ الله خالق السموات وَالْأَرْضِ اتَّخَذْتُمْ مَنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَعَبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَعْنِي: الْأَصْنَامَ، وَهُمْ ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ؟

ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا فَقَالَ: *﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ، ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي﴾ قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ " يَسْتَوِي " بِالْيَاءِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالتَّاءِ لِأَنَّهُ لَا حَائِلَ بَيْنَ الِاسْمِ وَالْفِعْلِ الْمُؤَنَّثِ. *﴿الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أَيْ: كَمَا لَا يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ لَا يَسْتَوِي الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ.

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أَيْ: جَعَلُوا، *﴿شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: اشْتَبَهَ مَا خَلَقُوهُ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَلَا يَدْرُونَ مَا خَلْقَ اللَّهُ وَمَا خَلَقَ آلِهَتُهُمْ، تهكم واستبعاد لفرضية الشرك؛ إذ لم يُنازع اللهَ أحدٌ في خلق ذرة.

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ أشد في إظهار العجز؛ فمن لا يملك النفعَ الأصلي لنفسه، كيف يُرجى منه نفعُ غيره؟

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، كان ينبغي أن يكون هذا من البديهيات، لا جدال ولا مراء في ذلك.

إشراقة بلاغية: تكرار الأمر ﴿قُلْ﴾ (4 مرات): تلقين للرسول ﷺ، وتوجيه لإقامة الحجة بأسلوب السجال والمحاجة المباشرة.

تلقين الجواب ﴿قُلِ اللَّهُ﴾: لأن المشركين يُقرّون في بادي الرأي بالتوقيف العاطفي أن الله هو الخالق، فبادر بنطق الجواب نيابةً عنهم لإلزامهم بما يتلوه.

الطباق والمقابلة: (الأعمى والبصير)، (الظلمات والنور). جاء النور مفرداً والظلمات جمعاً؛ لأن الحق طريق واحد نوراني، بينما سبل الباطل والضلال متعددة ومظلمة (كما نبه ابن القيم).

المناسبة هنا – كما سبق من كلام ابن عاشور رحمه الله -: هي ربط ربوبية السماوات والأرض بعدم استحقاق غير الله للإلهية والعبادة، فلما ثبت الإيجاد ثبت التوحيد.

يصف العماء الآية بأنها جولة في أرجاء الوجود، تُحيي الوجدان الإنساني وتواجهه بالحقيقة الناصعة دون مواربة: الله هو القهار الذي لا شريك له في ملكه ولا في خلقه.

*﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾

إشراقة بلاغية: الآية تضم مثلين مائيّاً ونارياً للحق والباطل والوحي والقلوب (وهي نظيرة مثل سورة البقرة ومثل سورة النور):

المثل المائي: (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ)، (رابياً) أي عالياً مرتفعاً فوق الماء، الماء هداية الوحي، والأودية هي القلوب (كل قلب يسع بحسب قدرته وطاقته)، والزبد قيل: هو الشبهات والشهوات والباطل الطافي، فالماء الصافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل.

والمثل الناري: (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ)، أي: إذا أذيب فله أيضاً مثل زبد الماء، الإيقاد على المعادن لخلاص التبر والفضة، والخبث المنتفخ هو الزبد الناري.

(كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ)، التشبيه التمثيلي المركب: حركة الزبد الطافي فوق السيل تعكس فورة الباطل، لكنه زبد "رابي" (منتفخ، طافٍ لا جوهر له).

التنكير في ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾: للتنويع والتعدد، فمن القلوب أودية كبار تتسع لعلوم كثيرة، ومنها أودية صغار.

لفظ ﴿جُفَاءً﴾: الجُفاء هو ما يرمي به السيل أو القدر إلى الجوانب ملوحاً ومطروحاً لا يُنتفع به.

فعل ﴿وأمّا ما ينفع الناس فَيَمْكُثُ في الأرض﴾: التعبير بـ "يمكث" يدلّ على الثبات والاستقرار والتغلغل في الأرض للنفع.

أطال العلماء في شرح هذا المثل؛ فالوحي نزل من السماء طاهراً نقياً، فإذا خالط القلوب تحركت الشبهات والشهوات إلى السطح كالزبد، والجاهل يظن أن السيل كله زبد، بينما العارف يعلم أنّ الماء الصافي يستقر في قعر الوادي ليُحيي الأرض، وأن الزبد يزول ويضمحل.

وأبرز علماؤنا إعجاز البيان في المقارنة بين المنافع الذاتية (الماء للمحيا، والمعادن للحلي والمتاع) وبين الهباء المنتفخ الذي لا أصل له.

(كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) فجعل الله هذا مثلا للحق الثابت كثبوت الكلمة الطيبة في سورة أبراهيم، والباطل الذي شبهه في سورة إبراهيم بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من الأرض ما لها من قرار.

المقابلة بين الاستجابة والإعراض: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

إشراقة بلاغية: الإيجاز بالحذف: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة.

المبالغة والتهويل: ﴿والذين لم يستجيبوا له لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ صورة تصويرية لمدى فداحة المشهد يوم القيامة، حيث تعظم القيمة المادية الصفرية أمام العذاب.

المقابلة التامة بين فريق الاستجابة وفريق العصيان: يلفتمحمد قطب – رحمه الله - النظر إلى التفاعل والاستجابة؛ فالنفس البشرية إمّا أن تستجيب لنداء الفطرة فتصل إلى "الحسنى"، أو تنغلق وترفض فتسقط في العذاب الذي لا يفكها منه ملء الأرض ذهباً.

(أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) قال إبراهيم النخعي: (سوء الحساب) أي: يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له منه شيء، (وَمَأْوَاهُمْ) في الآخرة (جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) أي: الفراش، بئس ما مهّد لهم [1].

المقوم السلوكي لأولي الألباب: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا

([1]) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص609).

وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)﴾

التحليل الأسلوبي والبلاغي والنحوي لمجموع الصفات: تأتي الصفات التسع المذكورة في حلف متكامل يمثل نموذج الإنسان المسلم الكامل:

الوفاء بالعهد: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ (التزام عقدي وإيماني)، ثم عدم النكث: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (تأكيد معنوي وتثبيت للوفاء).

﴿والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: أراد به الإيمان بجميع الكتب والرسل، ولا يفرقون بينهم كما في قوله تعالى (لانفرق بين أحد من رسله) [البقرة:295]،

وقال الأستاذ محمد قطب رحمه الله: إنّ (ما) بهذا التعميم تعني كل ما أمر الله به أن يوصل. وإنّ هذا التعميم بالنكرة هنا يعطي مساحة للمعنى يدخل فيها أمور لا تحصى، والسياق هنا لا يحصيها، ليبقيها هكذا عامة شاملة موحية!

فاتصال القلب بالله في الصلاة والذكر مما أمر الله به أن يوصل، والاتصال بذوي القربى بالمودة والإنفاق عليهم مما أمر الله به أن يوصل، واتصال الزوجين بالمودة والرحمة مما أمر الله به أن يوصل، واتصال القلوب المتآلفة المتحابة في الله مما أمر الله به أن يوصل . . وغيرها . . وغيرها مما يشمل كل أعمال الإنسان![1].

والأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم.

عن أبي سلمة أنّ عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال – يعني عبد الرحمن -: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكي عن ربه عز وجل: (أنا الله، وأنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها من اسمي اسما، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته) [2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا

(1) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص174).
(2) – أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ج8/ص563)، وعبد الرزاق في مصنفه (ج11/ص172)، وأبو دود (1694)، والترمذي (1907)، وأحمد (1659) باختلاف يسير.

رب، قال: فذلك لك. ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرأوا إن شئتم: (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) [محمد:22] [1].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه [2].

وعن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الأخرة من البغي وقطيعة الرحم [3].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يدخل الجنة قاطع رحم[4].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن أعرابيا عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير له فقال: أخبرني بما يقربني إلى الجنة ويباعدني من النار؟ قال صلى الله عليه وسلم (ارب ما له)، قال صلى الله عليه وسلم: تعبد الله، لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم [5].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها [6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله: إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لئن كان كما تقول لكأنما تسفهم المل، لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك[7].

([1]) – أخرجه البخاري (4830)، ومسلم (2554).
([2]) – أخرجه البخاري (2067)، ومسلم (2557).
([3]) – أخرجه أبو داود (4902)، والترمذي (2511)، وابن ماجه (4211)، وأحمد (20347) وابن حبان في صحيحه (455).
([4]) – أخرجه البخاري (5948) باختلاف يسير، ومسلم (2556) هذا لفظه.
([5]) – أخرجه البخاري (5983)، ومسلم (13) باختلاف يسير.
([6]) – أخرجه البخاري (5991)، وأبو داود (1697)، والترمذي (1908)، وأحمد (6785).
([7]) – أخرجه مسلم (2558)، وأحمد (7992)، والبزار (8323)، وابن حبان في صحيحه (451).

ثم عبادة خشية الله الخافية والظاهرة: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الجمع بين الخشية القائمة على التعظيم والخوف من الجزاء).

عبادة الخشية شأنها عظيم، والمؤمن يسير إلى الله بالخوف الذي لا يؤدي إلى القنوط من رحمة الله، والرجاء الذي لا يؤدي إلى الأمن من مكر الله، وحب الله على وافر نعمه وعظيم آلائه،

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكم به من نِعَمِه، وأَحِبُّوني لحُبِّ اللهِ، وأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتي لحُبِّي[1].

قال العثيمين رحمه الله: إذا غلب عليه الرجاء وقع في الأمن من مكر الله، وإذا غلب عليه الخوف وقع في القنوط من رحمة الله، وكلاهما من كبائر الذنوب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان رجل يسرف على نفسه، لما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني مع الريح، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحد، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الأرض، وفي رواية فقال الله عز وجل: كن، فإذا هو رجل قائم، قال الله: أي عبدي ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب، فغر له [2]..

ثمّ الصبر المخلص: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (قيد الإخلاص: الصبر ليس تجلداً بل لوجه الله).

عن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمرَه كُلَّه خَيرٌ، وليسَ ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ، إن أصابَتْه سَرَّاءُ شَكَرَ فكانَ خَيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فكانَ خَيرًا له[3]..

ثم إقامة الصلاة: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (إيمانية عمودية)، ثم الإنفاق المزدوج: ﴿وأَنَفَقُوا مما رزقناهم سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، تغطية كافة أحوال الحاجة والمصلحة الشرعية مع الإيمان والإقرار بأن هذا المال إنما هو مال الله خوله الله لهم ورزقهم إياه.

ثم دفع السيئة بالحسنة: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (قمة الأخلاق الاجتماعية والدفع بالتي هي أحسن).

---

(1) – أخرجه الحاكم في المستدرك (4775)، وفي ((فضائل الصحابة)) (1952)، والآجري (1760)، والبيهقي ((الآداب)) (852) واللفظ له، وقال في الدرر السنية: صحيح الإسناد.
(2) – أخرجه البخاري (3481)، ومسلم (2756) باختلاف يسير.
(3) – أخرجه مسلم (2999) من أفراد البخاري على مسلم.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض [1].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن [2].

وفي جميعها أحاديث حسان صحيحة وآيات تجعل شأن كل واحد منها شأنا عظيماً فكيف بها جميعاً نسأل الله أن جعلنا من أهلها.

التلقي والجزاء الإلهي: (أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ).

التخصيص والالتفات: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ حكاية لقول الملائكة؛ حذف القول لتعجيل البشارة والمواجهة بالسلام المباشر.

الباء في ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾: باء السبب والمقابلة؛ فالصبر كان الجسر الذي عبروا عليه إلى جنات عدن.

التضامن الأسري الإيماني: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ...﴾ إشارة إلى أن الصلاح هو شرط الالتحاق والتزاور في الجنة وليس مجرد النسب المجرد.

نظرة التفسير والتدبر:

يصف سيد قطب - رحمه الله - هذه الصفات بأنها "دستور السلوك البشري الإيجابي الصاعد"، بناء متكامل يشد بعضه بعضاً.

أمّا ابن عاشور – رحمه الله - فينبه على أن التعبير بـ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قُصر على من يتذكر بهذه الدلائل، لأن من لا يتفكر كأنه لا لبّ (عقل) له.

الصورة المقابلة: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

جاءت هذه الآية بمثابة المقابلة التامة، للآيات الصفاتية السابقة: قابَلَ ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بـ ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾، وقابَلَ ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ...﴾ بـ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ

([1]) – أخرجه أحمد (17307)، والطبراني (783)، والروياني في مسنده (165) وصحح الألباني إسناده في صحيح الترغيب والترهيب.

([2]) – أخرجه الترمذي (1987)، وأحمد (17307)، وصحح الألباني إسناده في صحيح الترمذي.

اللَّهُ...﴾، وقابَلَ الإصلاح والدفع بالحسنة بـ ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، وقابَلَ ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ بـ ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾، مع إضافة ﴿اللَّعْنَةُ﴾ وهي الطرد من الرحمة.

جاء هذا التصريح بصفات الفاسقين الخاسرين بعد أن ذكر الله تعالى صفات المؤمنين الابرار في الآيات السابقة، وكانت تكفي تعريضاً بضدهم (وبضدها تتمايز الأشياء) لأسباب بلاغية، منها: إحباط الأطماع وسد باب التأويل، وإبراز كمال المباينة والمضادة، والتهويل والتشنيع على أفعال الفاسقين، وترتيب الجزاء الخاص بالمؤمنين على جميل أفعالهم، والفاسقين على سوء أفعالهم.

عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أغير من الله ومن أجل ذلك حرم الفواحش، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل[1].

وأمّا التعبير بـ ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ فإنّه يُظهر شناعة النقض؛ لأنه نقض بعد التأكيد والتوثيق، مما يدل على قسوة القلوب والتمرد الذاتي.

خاتمة الآية وحاصل الأفعال ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾: فمن قطع ما أمر الله به وصله وسعى بالفساد، استحق القطع المطلق من رحمة الله (وهو المسمى باللعنة).

يستدل العماء بهذه الآية على أنّ أصل الشرور في العالم يعود إلى نقض العهود الإلهية وتقطيع الصلات الإيمانية والإفساد في الأرض.

خلاصة الدرس: ينتظم سياق هذا الدرس في نسيج محكم: تجريد التوحيد وإبطال الشرك عبر دلالة الخلق والأنوار والعمى والظلمات.

ضرب المثل الكوني الملموس للحق المحتفظ بجوهره والباطل الزائل المنتفخ كالزبد.

تفريغ الناتج البشري إلى فريقين: مستجيبين (أولي الألباب) وناكثين، مع رسم الخارطة الأخلاقية والسلوكية لكل فريق وتحديد المصير النهائي (عقبى الدار سوء الدار).

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) كَذَٰلِكَ

([1]) – أخرجه الخباري (4634)، ومسلم (2760).

أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ(34) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ(42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(43))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس الأخير والمتمم لمقاصد سورة الرعد هي مَرحلة تتنزّل فيها المعاني التوحيدية والعقدية والسننية لترسم ملامح الصراع بين الحق والباطل، وتكشف طبيعة الإيمان العميق في مقابل الهوى المادي والتعنت الاستكباري.

*﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾

يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله عن هذه الآية: آية تجيء مفاجئة – في الظاهر- بعد وصف الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، كأنما تقطع السياق؟

كلا! إن هناك جسراً خفيّاً يربط الآيتين برباط وثيق، إنما يحتاج الأمر إلى إنعام النظر، لكي نرى الجسر الوسيط.

إنّ هؤلاء الكفر يكفرون حرصاً على متاع الحياة الدنيا! يخافون أن يحرمهم الإيمان بالله من متاعهم! لأنهم يرون المؤمنين في محنة وابتلاء، لا مال عندهم، ولا متاع، وينسون أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر! إنه ليس الإيمان الذي يضيع المال والمتاع، ولا الكفر هو الذي يبقي على المال والمتاع كما يظن الجاهلون دائماً في كل جاهلية، إنما الله هو الذي يوزع الرزق، ولحكمة يريدها. . وفي النهاية سواء بسط الرزق للإنسان في الدنيا أو قدر عليه رزقه، فإنه متاع زائل زائف، لا وزن له في الآخرة.

والمتاع الحق هو ذلك المتاع الاخروي. . الذي لا ينشئه تملك المتاع في الدنيا، إنما ينشئه الإيمان! ومن ثم فإن هذه النظرة التي ينظر بها الكفار إلى الأمر فيكفرون إنما هي نظرة غبية لا تستحق الاحترام.

افتتاح الجملة باسم الجلالة (اللَّهُ): يفيد القصر والحصر، أي أن أمر الرزق بيد الله وحده لا يد لأحد فيه.

المقابلة: بين (يَبْسُطُ): التوسعة والإكثار، و(يَقْدِرُ): التضييق والقدر المحدود، لإظهار كمال القدرة والتصرف بحكمة لا بذات الاستحقاق.

العدول في الضمير: ﴿وَفَرِحُوا﴾ بالتقاط ضمير الغائب عائدًا على المشركين دون تصريح باسمهم تقبيحًا لحالهم، حيث حصروا أفقهم في هذه العاجلة.

التشجير والتزهيد: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾، أسلوب قصر بالحصر والنفي، ولفظ "المتاع" في لسان العرب هو الشيء الحقير الزائل الذي يستمتع به المسافر كالمقلاة أو القصعة ثم يتركه.

إن فرحهم بالدنيا هو فرح استبشار وركون لا فرح استعانة على الطاعة، وهذا هو الفرح المذموم.

يَبرز هنا المعنى الشاخص في المقارنة بين سعة الدنيا الموهومة وعظمة الآخرة الحقيقية، مستعرضًا حركة الرزق والمشيئة الإلهية التي تخضع لحكمة أعمق من مقاييس البشر.

ثم يعد السياق إلى تسجيل من يطلبه الكفار من تنزيل آية.. وهذه هي المرة الثانية في السورة التي يسجل فيها طلبهم، بما يدل على إلحاحهم الشديد في ذلك.

كما يدل على اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمر، وهذا كذلك يرجح أن السورة مكية، لا مدنية، فإن هذا كله كان يقع بمكة لا بالمدينة.

*﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، لكنه لا يدر عليهم بالاستجابة، وإنما يجيء الرد: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ

قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾،

إنّ الله لن ينزل عليهم الآية التي يطلبونهما لحكمة يراها الله سبحانه وتعالى، لكنه لا يرد عليهم بذلك مباشرة، بل يرد بحقيقة لا يجعلون بالهم إليها: إنّ الإيمان ليس متعلقا بتنزيل آية، وإنما هداية التوفيق والانقياد بيد الله، الله هو الذي يهدي الذين يتوجهون إليه متطلعين إلى الحق، ويضل الذين تنصرف قلوبهم عن الحق [1].

إشراقة بلاغية: ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض وتوبيخ يظهر اقترحهم المستكبر، كما أنّ التنكير في ﴿آيَةٌ﴾: تنكير للتقليل والتنقص مما جاء به الرسول ﷺ، كأنهم لا يعدون القرآن آية!

ردّ الإلهام والتعقيب ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ﴾: جاء الجواب بحقيقة أن الهداية ليست بمنوطة بالمشاهدة الحسية للآيات، بل بحال القلب.

شَرط الهداية: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾: (أي رجع وأقبل بقلبه)، في مقابل ﴿مَن يَشَاءُ﴾: في الإضلال لمن أعرض واستكبر.

"الإنابة" هي السبب العبدي المقترن بفضل الله، فالإضلال عقوبة على الإعراض، والهداية إكرام لمن أقبل.

اللطيفة في قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾: حيث عُدي الفعل بـ (إلى) لتأكيد الوصول والغايات العلية.

*﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: تفسير وتوضيح لصفة "من أناب" في الآية السابقة.

أداة التنبيه ﴿أَلَا﴾: للاستفتاح وإيقاظ الأذهان لأمر جليل يستحق الحصر والاهتمام.

تغليب التقديم والتأخير (القصر): ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: بتقديم الجار والمجرور أفاد الحصر القاطع: أي لا تطمئن القلوب حق الطمأنينة بأي شيء آخر في هذا الوجود إلا بذكر الله.

السكون بعد القلق: استخدام الفعل المضارع ﴿تَطْمَئِنُّ﴾: يدل على التجدد والاستمرار للسكينة والاستقرار الشامل.

المناسبة بين الرزق والطمأنينة أن القلوب القلقة على أرزاقها لا تجد سكونها إلا في ذكره سبحانه، لأنه المتكفل بالخلق والرزق.

([1]) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص177).

هذه الآية تؤكد أنّ القلق النفسي والعقد الإنسانية لا تُحل بالفلسفات والماديات، بل بصلة الروح أو نفس المؤمن ببارئها عبر الذكر المباشر.

*﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾: بيان العاقبة والمآل للذين جمعوا بين إيمان القلوب (الاطمئنان) وعمل الجوارح (الصالحات).

إشراقة بلاغية: ﴿طُوبَى﴾: مصدر، وصيغة تفضيل من الطيب، وهي مصدر أُقيم مقام الوصف (أي: العيش الأطيب والحالة الفضلى).

التنكير والمآب: ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾: إضافة المصدر الميمي للإفادة الشمولية لجمال المرجع وعظمة المُنقلب.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: طوبى اسم الجنة بالحبشية، أو بلغة الحبشة [1].

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ في الجَنَّةِ لَشَجَرةً يَسيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مِائةَ عامٍ لا يَقطَعُها [2]..

يرى البعض أنّ "طوبى" تشمل طيب الحياة الدنيا بالرضا والقناعة، وطيب البرزخ بالنعيم، وطيب الآخرة بالجنة.

كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97].

يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله: لقد ذكر الإيمان وحده في الآية السابقة، ليصف أثر الإيمان في مشاعر الإنسان، ثم أردفها بهذه الآية ليبين أثر الإيمان في السلوك العملي.

أولئك ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾: الطيبات لهم والمآب الجميل إلى الله جل وتعالى [3].

*﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

تثبيت للنبي ﷺ بالتذكير بسنن الإرسال في الأمم الخالية، والتعجيب من حال قومه.

([1]) – انظر: البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص612).
([2]) – أخرجه البخاري (6552) معلقاً، ومسلم (2827) موصولاً.
([3]) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص178).

الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾: للتشبيه العالي، أي: كما أرسلنا الرسل من قبلك تثبيتًا وهداية، أرسلناك.

جملة الحال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ جملة حالية شنيعة؛ إذ كيف يكفرون باسم "الرحمن" الذي وسعت رحمته كل شيء وتنزلت من رحمته الهدى؟!

القصر والتبرؤ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: إعلان فاصل يتضمن التوحيد العلمي والعملي، مع تقديم التفويض: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: واستقرار المرجع: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

ابن عاشور: يبرز نكتة إيثار اسم "الرحمن" هنا لأنهم كانوا ينكرون هذا الاسم (قالوا وما الرحمن؟)، ولتبيين عظم جحودهم للنعمة المطلقة.

*﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لهدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾

الرد القاطع على مقترحات التعنت والطلب المتكرر للآيات المادية، إشراقة بلاغية:

حذف جواب الشرط (الإيجاز بالحذف): ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾، وجواب "لو" محذوف تقديره: "لكان هذا القرآن"، أو "لما آمنوا أيضاً". وهذا الحذف يفتح الباب لاستعظام قدر القرآن وتعجيز المقترحين.

يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله: "والنص بصورته المعجزة هذه يحمل عدة معاني في وقت واحد:

أن القرآن هو المعجزة التي شاءت إرادة الله أن ينزلها على الرسول صلى الله عليه وسلم، دون غيره من المعجزات، (لا يمنع هذا وجود معجزات أخرى للرسول صلى الله عليه وسلم غير القرآن).

أن الله جل وتعالى لن ينزل خارقة أخرى حسية، بل القرآن هو المعجزة المختارة – لحكمة ربانية – بدلا من الخوارق التي أرسل بها الرسل قبل، ليس من شأنه أن يصنع خوارق حسية كتسيير الجبال أو تقطيع الأرض أو تكليم الموتى، إنما هو معجزة معنوية تخاطب القلوب والعقول لتصل بها إلى الرشد عن طريق الوعي والأدراك التفهم، لا عن طريق الإخضاع للخارقة الحسية، ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء:4].

وأنّ الخارقة المعنوية التي يصنعها القرآن هي كتسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، بل هي أعظم وأخطر، إنه يصنع الإيمان في القلوب، والإيمان قوة

معنوية أعظم خطراً من القوى الحسية، ثم إنه – بما يولده في قلوب البشر من طاقة – ينتج آثاراً حسية في الأرض تشبه تسيير الجبال [1].

الإضراب الاستدراكي ﴿بَل لِّلهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، رد الأمر إلى قدرة الله التامة وحكمته، فلا تسيير الجبال يولد الإيمان، إنما الإيمان بفعل الله وتوفيقه.

﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لهدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾: فخلقهم كالملائكة – كلهم مؤمنين، ولكن مشيئة الله اقتضت سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً لطريقة (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [البلد:10]، (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) [الإنسان:3]، ويترتب على ذلك أن يختار فريق طريق الهدى، ويختار فريق طريق الضلال، وهؤلاء من الفريق الذي اختار طريق الضلال [2].

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾:

المصطلحات التهويلية: ﴿قَارِعَةٌ﴾، (مصيبة تقرعهم بشدة)، و﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، لترسيم مشهد الفزع والتهديد الدايم

*﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، في السياق تسلية لقلب النبي ﷺ من استهزاء قومه، وتخويف للمستهزئين. إشراقة بلاغية:

التسلية بالنظائر: بناء الفعل للمجهول ﴿اسْتُهْزِئَ﴾، لتعميم الاستهزاء ولبيان أنه سنة جارية مع الرسل.

التدريج السنني: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾، (أمهلتهم وأطلقت لهم العنان) ثم ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾، (أخذ عزيز مقتدر).

الاستفهام التقريري المهول: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، لحذف الياء للتناسب الفاصلي، والاستفهام هنا لإثارة الهول والتعجيب من شدة العذاب.

نظرة المفسرين:

ابن تيمية: يستدل بهذه الآية على سنة "الإملاء والاستدراج"، وأن التباطؤ في العقوبة ليس إهمالاً بل استدراجًا حكيمًا.

*﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾،

([1]) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص180).
([2]) – المصدر السابق (ص181).

إقامة الحجة البرهانية على إبطال الشرك ومقارنة عظمة الخالق بعجز الأصنام.

إشراقة بلاغية: الاستفهام الإنكاري المحذوف الجواب: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾، وتقديره: كمن ليس بقائم على شيء؟ (وهي الأصنام).

القيومية: لفظ ﴿قَائِمٌ﴾، يعبر عن الإحاطة، الحفظ، التدبير، ومحاسبة الأعمال.
الأسلوب التهكمي التعجيزي: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾، أي اذكروا أسماءهم وصفاتهم وأدلتكم على استحقاقهم للعبادة، وفي هذا تجهيل تام لهم.

السخرية والتهجين: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾، أي أتعلمون الله بشيء لا يعلمه في أرضه؟ وهو محال. ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾، أي مجرد ألفاظ باطلة وأسماء بلا مسميات (دعاوى فارغة).

ابن عاشور: يوضح أن "الظاهر من القول" هو الكلام الشفهي الذي لا يعتمد على حقيقة، فهو ظاهر في اللسان مفقود في الأعيان.

*﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: بيان العاقبة المأساوية الحتمية للمشركين.

إشراقة بلاغية: اسم التفضيل: ﴿أَشَقُّ﴾: للتحذير من هول الآخرة مقارنة بابتلاءات الدنيا.

تأكيد النفي: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: بدخول "من" الاستغراقية البيانية لقطع كل حيلة أو ملاذ.

*﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾:

مقابلة شائعة في أسلوب القرآن (المثاني)؛ بعد ذكر عذاب الكفار يأتي التوصيف التشبيهي لنعيم المتقين.

إشراقة بلاغية: التمثيل التقديري: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾: أي صفاتها العجيبة المقربة للأفهام.

الإيجاز والدوام: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾: حذف الخبر في الثاني للمعيّة والاطراد (أي: وظلها دائم لا ينسخ بشمس).

المقابلة الموجزة الحاسم: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾: حُذف لفظ (النعيم) في الأولى للاكتفاء بالوصف السابق، وجيء بلفظ ﴿النَّارُ﴾: صريحًا في الثانية لقطع كل أمل.

ابن القيم: يقف عند ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾: ليبين التباين بين نعم الدنيا المنقطعة ونعم الجنة المستمرة التي لا تحظر ولا تنقطع.

*﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ... وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: الموقف الاجتماعي والمنهجي من النزول القرآني بين أهل الكتاب الصادقين والأحزاب الملتوية، وتثبيت المنهج النبوي.

إشراقة بلاغية: التقسيم المنهجي: فرقت الآية بين من يفرح بالحق لتطابقه مع معتقداته الصحيحة، وبين الأحزاب المنكرين عن هدم وهوى.

تحديد الوظيفة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾: أسلوب حصر يحدد طبيعة الرسالة الخالصة.

وصف القرآن: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: جمع بين الوظيفة التشريعية (حكماً) والأداة اللسانية (عربياً).

التحذير الشديد: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: خطاب موجه للنبي ﷺ والمراد به أمته، أسلوب شرط للتعظيم والتحذير القاطع من مداهنة أصحاب الأهواء.

*﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾:

هذا هو الموضع الثالث الذي يشير إلى إلحاح أهل مكة في طلبهم إنزال آية، عدا الإشارة الرابعة الضمنية في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ﴾، وبيان أن إنزال الآية ليس من مهمات الرسل، لإنه: *﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

رد على شبهتين للمشركين: بائبيّة بشرية الرسول (له أزواج وذريات) وبائبية تأخر الآيات والنسخ.

إشراقة بلاغية: القاعدة التشريعية الكونية: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: إيجاز محكم يعني لكل وقت أمر مقدور وقضاء مكتوب لا يتقدم ولا يتأخر.

يوضح ذلك الأستاذ محمد قطب رحمه الله بقوله: قال بعض المفسرين: إن الحديث هنا عن اللوح المحفوظ الذي فيه سجلات الخلق كلهم. . قال: إنما الأرجح عندي – والله أعلم – أنه استمرار للحديث عن الآية التي يطلبها الكفار، وإشارة إلى ما كان ينزل على الرسل السابقين من آيات، فقد جاء في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [القصص:48]، وفي سورة الأنبياء: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:5]، فالسياق يرد عليهم بأن كل عهد له كتابه وله معجزاته، وقد

انتهى عهد المعجزات الحسية التي كانت تنزل على الرسل السابقين، وجاء عهد هذه المعجزة المعنوية التي اختارها الله سبحانه وتعالى لرسوله الأخير خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، والله سبحانه وتعالى ينسخ ما يشاء من الرسالات والآيات ويثبت ما يشاء، وعنده أم الكتاب وعنده أم الكتاب، الأصل الذي ينزل الله منه ما يشاء حين يشاء[1].

المقابلة بالطباق: {يَمْحُو} و ﴿وَيُثْبِتُ﴾: لإظهار طلاقة المشيئة الإلهية في نسخ الأحكام وتغيير الأقدار وسنن الحياة.

عظمة الذات: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: استعارة لـ "اللوح المحفوظ" أو العلم الإلهي الأزلي المحيط بكل التفاصيل.

ابن تيمية وابن القيم: يقرران أن المحو والإثبات يكون في صحف الملائكة وفي القدر المعلق (بناء على الأسباب كالدعاء وصلة الرحم)، أما "أم الكتاب" فهو العلم الأزلي الذي لا يتبدل.

*﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾:

السياق: تجريد مهمة الرسول ﷺ من التطلع للنتائج المادية المعجلة.

إشراقة بلاغية: القصر بالتقديم والتأخير: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾: تقديم الجار والمجرور في الموضعين لتحديد الواجبات وتوزيع المسؤوليات؛ البلاغ حصراً للرسول، والحساب حصراً لله.

سيد قطب: يبرز هذا المبدأ العظيم في حقيقة الدعوة الإلهية: ألا ينتظر الداعية ثمرة جهده ولا يستعجل انتقام الله من أعدائه، فالداعية أداة، والأمر كله لله.

*﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾:

لفت نظر المشركين إلى آيات الله المشهودة في موت الكبار، أو خراب ديار الكفر وفتح ديار الإسلام.

إشراقة بلاغية: الاستفهام التقريعي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: لإيقاظ بصرهم وبصيرتهم. التعبير بـ ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾:استعارة تمثيلية لتقلص نفوذ الشرك بانتشار الإسلام، أو نقص الأرض بخرابها وموت علمائها وأهلها.

الصيغة الجازمة: ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾: نفي للجنس، أي لا أَحَدَ يَعقُبُ على حكمه بالرد أو التغيير أو الإبطال.

([1]) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص186).

*﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾:

طمأنة المؤمنين وتنفيد المكر الجاهلي: إشراقة بلاغية: المشاكلة التقديرية: إطلاق ﴿الْمَكْرُ﴾: على التدبير الإلهي هو من باب المشاكلة والمجاز، والمراد به إبطال مكرهم ومجازاتهم عليه بدقة.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾: قصر وتأكيد على شمول علمه وتدبيره، التهديد الجازم: *﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾: سين الاستقبال للتأكيد القريب المحتوم.

المكر في اللغة التدبير، لكنها تطلق - في حسنا – عادة على المكر السيء، من باب (المشاكلة اللفظية) يأتي صف تدبير الله بأنه مكر، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:30] [1].

*﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾:

ختام السورة الشريفة بالعودة إلى نقطة الصراع الأولى (إنكار الرسالة) وإغلاق الخصومة بالشهادة العظمى.

التجليل بـ ﴿كَفَىٰ﴾: دخول الباء الزائدة للتوكيد في الفاعل ﴿بِاللَّهِ﴾: لإظهار استغناء الرسول ﷺ بشهادة ربه عن تصديق المكذبين.

العطف العظيم: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: عطف أهل العلم والإنصاف (مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام أو الجنس المؤمن بالكتب) على اسم الجلالة، تشريفًا لمقام العلم الشاهد بالحق.

الخاتمة: التناسب البديع بين أول السورة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾، وبين آخرها ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: لتنغلق الدائرة البيانية على إثبات صدق القرآن وعظمة المنزِل والمُنَزَّل عليه.

*

سورة إبراهيم

تسمية السورة

(سورة إبراهيم): هو الاسم الوحيد لهذه السورة، لم يعرف لها اسم آخر، سُمّيت بذلك لاشتمالها على قصة النبي إبراهيم عليه السلام، ودعواته المستجابة لربه، وتذكير العباد بنعم الله وشكرها.

([1]) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص188).

وهي من السور المبدوءة بالحروف المقطعة (الر)، وهي مكية كلها عند أكثر المفسرين والجمهور، وقيل إنها مكية باستثناء الآيتين (28) و(29) أو (28 إلى 30) فقد رُوي عن ابن عباس وقتادة أنهما مدنيتان نزلتا في قتلى المشركين يوم بدر.

وقد اختلف في عد آياتها، فهي اثنتان وخمسون آية (52) في المصحف العثماني المعتمد، وأربع وخمسون آية.(54) في العد المدني، وعند **أهل الشام** : خمسون آية.(50) ، وعند أهل البصرة **:**إحدى وخمسون آية.(51) . وهذا الخلاف إنما في الوقع والابتداء مثل هل يعد (الر) آية مستقلة أم تعد مع ما بعدها آية.

سبب النزول

عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) قالَ: نزلَت في عذابِ القبرِ، يُقالُ لَهُ: مَن ربُّكَ؟ فيقولُ: ربِّيَ اللَّهُ، ونبيِّي محمَّدٌ، فذلِكَ قَولُهُ: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ[1].

ورواية الصحيحين: المُسلِمُ إذا سُئِلَ في القَبرِ يَشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، فذلك قَولُه: (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) [إبراهيم: 27] [2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(5) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7)وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ

---

[1] - أخرجه ابن ماجه (4269)، وصحح الألباني إسناده في صحيح ابن ماجه (3463) .

[2] - أخرجه البخاري (4699)، ومسلم (2871) بنحوه

وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(18) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(18))

هذه الآيات في الدرس الأول من سورة إبراهيم تُجسّد محور الديباجة للسورة: الفرق بين النور والظلمات، والتدافع بين الحق والباطل، ومصير الوجود الإنساني بين الشكر والكفران.

*﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾:

افتُتحت السورة بالحروف المقطعة «الر» لتنبيه الأذهان إلى إعجاز هذا الكتاب المسبوك من هذه الحروف. والمقصد الأساس للسورة هو إبراز وظيفة الرسالة: النقلة الوجودية الكبرى.

البيان والأسلوب: الجمع والإفراد: جاءت «الظُّلُمَاتِ» بصيغة الجمع؛ لأن سُبل الباطل والضلال والشبهات والشهوات متكاثرة متفرقة، بينما جاء «النُّورِ» بصيغة الإفراد؛ لأن طريق الحق واحد لا يتشعب (كما أشار ابن القيم في بدائع الفوائد).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خطَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خطًّا بيدِه ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ مستقيمًا، وخطَّ خطوطًا عن يمينِه وشمالِه، ثم قال: هذه السبلُ ليس منها سبيلٌ إلاّ عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكم عَنْ سَبِيلِهِ) [1].

الإسناد والتأدب: أُسند الإخراج للرسول ﷺ «لِتُخْرِجَ» أسلوباً وتكليفاً، لكن قُيِّد بـ «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» للفت النظر إلى أن التأثير الفعلي والهدى والتوفيق والقبول في الصالحين هو بفضل الله ومشيئته وإنما جهد البشر من الأسباب، هداية دلالة وإرشاد.

وهذا المعنى قريب من معنى قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [القصص:56]، والتي نزلت في شأن عم نبينا - ﷺ - الذي حرص النبي كل الحرص على إسلامه وهدايته ولكنه مات على الشرك. لتظهر الآية فصلاً حاسماً بين الرغبة البشرية المشروعة والسنن الإلهية الكونية.

وفيها من البلاغة والإعجاز الإيجازي: الالتفات والحصر الإلهي: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي من يشاء)، والهداية هنا هداية توفيق وإلهام، استعمل أداة الاستدراك (وَلَٰكِنَّ) لرفع التوهم بأن للرسول ﷺ قدرة على خلق هداية التوفيق والإلهام في القلوب، وإنما مهمته هي هداية "الدلالة والإرشاد"، بينما لله هداية "التوفيق والقبول".

القرآن ليس مجرد كتاب يُقرأ، بل هو قوة إخراج وتغيير، ينقل البشرية من ظلمات الجاهلية والعبودية للخلق إلى نور التوحيد والحرية.

الأسماء الحسنى: ختم الآية بـ «العَزِيزِ الْحَمِيدِ»؛ لأن الإخراج يحتاج إلى «عزة» وغلظة وقدرة على قهر الباطل الذي يصد عن سبيل الله، وإلى «حمد» يستوجب المحبة والثناء على نعمة الهداية.

*﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾:

الإعراب: قراءة لفظ الجلالة «اللهِ» بالجر بدل من «الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»، وفي هذا ربط بين صفة العزة والحمد وبين ملكية الله المطلقة للكون وحفظه وتدبيره لأمره.

إشراقة بلاغية: تقديم ما لله «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» يورث في قلب المؤمن الاستغناء، وفي قلب الكافر الرهبة؛ فالذي يصد عن السبيل يعاند من يملك الكون كله.

---

1 - أخرجه أحمد (4142)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11174)، والدارمي (202) باختلاف يسير، وصحح ابن باز إسناده، انظر مجموع فتاوى ابن باز (ج1/ص239).

الالتفات من مقام الرحمة والإخراج إلى النور إلى مقام التهديد «وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ»، والـ«ويل» إما دعاء بالهلاك تنزل كالصاعقة بعد تقرير الملكية المطلقة لله، وإما خبر عن وادي في جهنم والعياذ بالله.

*﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾:

«يَسْتَحِبُّونَ»: الزيادة في البناء (السين والتاء) تدل على الطلب والحرص والشغف الشديد، فهم لا يفضلون الدنيا فحسب، بل يطلبون حبها وينغمسون فيه إيثاراً على الآخرة.

«وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا»: الضمير يعود على «سبيل الله»؛ أي يريدون أن يميلوا بسبيل الله المستقيم ليتوافق مع أهوائهم وشهواتهم، أو يبغون للدنيا أن تعوجّ عن نهج الحق.

إشراقة بلاغية: وصف الضلال بـ «بَعِيدٍ» تشبيه لضلالهم بالذي ضلّ الطريق في صحراء شاسعة فابتعد عن نقطة النجاة حيرة وتيهاً، بحيث يصعب عليه الرجوع.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كانت الدُّنيا همَّه، فرَّق اللهُ عليه أمرَه، وجعل فقرَه بين عينَيْه، ولم يأْتِه من الدُّنيا إلَّا ما كُتِب له، ومن كانت الآخرةُ نيَّتَه، جمع اللهُ له أمرَه، وجعل غناه في قلبِه، وأتته الدُّنيا وهي راغمةٌ [1].

وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ من أن تكون الدنيا أكبر همنا، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: قلَّما كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ يقومُ من مَجلسٍ حتَّى يدعوَ بِهَؤلاءِ الكلِماتِ لأصحابِهِ: اللَّهمَّ اقسِم لَنا من خشيتِكَ ما يَحولُ بينَنا وبينَ معاصيكَ، ومن طاعتِكَ ما تبلِّغُنا بِهِ جنَّتَكَ، ومنَ اليقينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ علَينا مُصيباتِ الدُّنيا، ومتِّعنا بأسماعِنا وأبصارِنا وقوَّتنا ما أحييتَنا، واجعَلهُ الوارثَ منَّا، واجعَل ثأرَنا على من ظلمَنا، وانصُرنا علَى من عادانا، ولا تجعَل مُصيبتَنا في دينِنا، ولا تجعلِ الدُّنيا أَكْبرَ همِّنا ولا مبلغَ عِلمِنا، ولا تسلِّط علَينا مَن لا يرحَمُنا [2].

*﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

---

1 - أخرجه ابن ماجه (4105) واللفظ له، وابن حبان (680) في أثناء حديث، وأبو داود الطيالسي(617)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (950): إسناده جيد رجاله ثقات.
2 - أخرجه الترمذي (3502) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10234)، والطبراني في ((الدعاء)(1911) ، وحسن الألباني إسناده في صحيح الترمذي.

«بِلِسَانِ قَوْمِهِ»: أي بلغتهم، ويدخل في مفهوم اللسان هنا المفردات والقواعد اللغوية، والبيان الثقافي والنفسي والوجداني الذي يفهمه القوم لتسقط كل حجج الاعتذار بالغموض

ويثير البغوي - رحمه الله - هنا سؤالاً: كيف هذا وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى كافة الخلق؟ ويجيب رحمه الله: بعث صلى الله عليه وسلم من العرب بلسانهم، والناس تبع لهم، ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عز وجل، ويترجمون لهم بألسنتهم [1].

قلت: وقد أيّد الله ذلك بان قذف حب قريش وحب العرب في قلوب الناس، فعن أبي هرير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: النَّاسُ تَبَعٌ لقُرَيشٍ في هذا الشَّأنِ؛ مُسلِمُهم تَبَعٌ لمُسلِمِهم، وكافِرُهم تَبَعٌ لكافِرِهم، والنَّاسُ مَعادِنُ، خيارُهم في الجاهِلِيَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فَقِهوا، تَجِدونَ مِن خَيرِ النَّاسِ أشَدَّ النَّاسِ كَراهيةً لهذا الشَّأنِ حتَّى يَقَعَ فيه [2].

وميز العرب ومن اهتدى على أيديهم بالحفظ والأمانة فحفظ لنا سبحانه القرآن وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وسيرته وفهم صحابته فلا يضيع كما ضاعت كتب الرسالات السابقة التي لم يتعهد سبحانه بحفظها.

قوله سبحانه: «لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»، أي: ليفهموا عنه، أُسند التبيين للرسل كواجب وبلاغ، وأُسندت الهداية والإضلال لله «فَيُضِلُّ اللَّهُ... وَيَهْدِي»، ليؤكد أن شأن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى:

الإضلال هنا عقوبة على العناد، وقدم الإضلال لانّ الضالين أكثر، كما قال تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [الصف:5]. والهداية توفيق لمحل قابل للخير؛ فلما بيّن الرسل باللسان الواضح، انقسم الناس اختياراً، فجرى عليهم قدر الله القائم على «الْعَزِيزِ» (القادر) «الْحَكِيمِ» الذي يضع الهداية والإضلال في موضعهما الأعدل.

عن أبي سعيد لخدري رضي الله عنه، عن البني صلى الله عليه وسلم قال: يقالُ لآدمَ : أخرِجْ بعثَ النَّارِ، قال : فيقولُ : وما بعثُ النَّارِ؟ فيقولُ: من كلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةٍ وتسعينَ، فعند ذلك يشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ الحاملُ حملَها، وترَى النَّاسَ سُكارَى وما هُم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ، قال: قلنا: فأين النَّاجي يا رسولَ اللهِ؟! قال: أبشِروا! فإنَّ واحدًا منكم، وألفًا من يأجوجَ ومأجوجَ، ثمَّ قال: إنِّي لأطمعُ أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجنَّةِ! فكبَّرْنا، وحَمدْنا اللهَ، ثمَّ قال : إنِّي لأطمعُ أنْ تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنَّةِ ! فكبَّرْنا وحَمدْنا اللهَ، ثمَّ قال: إنِّي لأطمعُ أنْ تكونوا نصفَ أهلِ الجنَّةِ، إنَّما مثلُكم في

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص617).
2 - أخرجه البخاري (3495، 3496)، ومسلم (1818) مختصراً.

النَّاسِ كمثلِ الشَّعرةِ البيضاءَ في الثَّورِ الأسودِ، أو كمثلِ الشَّعرةِ السَّوداءَ في الثَّورِ الأبيضِ[1].

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللَّهَ يَصنعُ كلَّ صانعٍ وصنعتَهُ[2].

قال ابن سعدي رحمه الله: إنّ الله كما أنه الذي خلقهم، أي: الناس، فإنّه خلق ما به يفعلون من قدرتهم وإرادتهم، ثم هم فعلوا الأفعال المتنوعة من طاعة ومعصية، بقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقها الله [3].

بيد أن ضلالهم الذي وقع اختيارهم، ولا يخرج عن مشئته سبحانه، فقد أذن به لحكمة يعلمها سبحانه ولا يرضاه: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر:7].

وَذَكَرَ: " التَّبْيِينَ " وَ " الْهُدَى "؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ أَوَّلًا يَحْتَاجُ إلَى مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَمَا أُمِرَ بِهِ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ ثُمَّ يَحْتَاجُ بَعْدَ ذَلِكَ إلَى أَنْ يُهْدَى فَيَقْصِدُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ دُونَ الْبَاطِلِ. وَهُوَ سُنَنُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ [4].

ثم بعد تقرير القاعدة العامة لبعثة الرسل، جاء النموذج التطبيقي الأصرح في التاريخ البشري: قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وفرعون.

*﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ﴾: «أَيَّامِ اللَّهِ»: تعبير بديع، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: بِنِعَمِ اللَّهِ وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بِوَقَائِعِ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: وَ"الصَّبَّارُ": الْكَثِيرُ الصَّبْرِ، وَ"الشَّكُورُ": الْكَثِيرُ الشُّكْرِ، وَأَرَادَ: لِكُلِّ مُؤْمِنٍ، لِأَنَّ الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ مِنْ خِصَالِ الْمُؤْمِنِينَ.

«صَبَّارٍ شَكُورٍ»: صيغ مبالغة متقابلة. الحياة تتداول بين بلاء يحتاج إلى مبالغة في الصبر («صَبَّارٍ»)، ونعمة تحتاج إلى مبالغة في الشكر («شَكُورٍ»). والمؤمن يتنقل بين هاتين الجناحين.

---

1 - أخرجه البخاري (3348)، ومسلم (222) بلفظه.
2 - أخرجه البيهقي في ((القضاء والقدر)))) ص: 171 (_x000D_)(واللفظ له، والحاكم (85) والبزار(2837) بنحوه، وصحح إسناده ابن حجر في فتح الباري (ج13/ص507).
3 - ابن سعدي: الدرر البهية شرح القصيدة التائية (ص18).
4 - انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى (ج10/ص579).

*﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، يسومونكم أي يذيقونكم، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْعِلَّةُ الْجَالِبَةُ لِهَذِهِ الْوَاوِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَهُمْ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ كَانُوا يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ غَيْرِ التَّذْبِيحِ»

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، قال الفراء: وَبِالتَّذْبِيحِ، وَحَيْثُ طَرَحَ الْوَاوَ فِي "يُذَبِّحُونَ" وَ"يُقَتِّلُونَ" أَرَادَ تَفْسِيرَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانُوا يَسُومُونَهُمْ، زاد الطبري رحمه لله: وكذلك العمل في كل جملة أريد تفصيلها، فبغير الواو تفصيلها، وإذا أريد العطف عليها بغيرها وغير تفصيلها فبالواو"[1].

قلت: وهذا يدخل في علم الفصل والوصل من علم الأسلوب في البلاغة، والوصل: عطف جملة على أخرى بالواو، والفصل ترك هذا العطف، فقوله تعالى في سورة البقرة (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) [البقرة:49]، وفي سورة الأعراف (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ) [الأعراف:141] هذان الموضوعان من الفصل، فالفصل ترك الربط بين الجملتين إما لأنهما متحدتان صورة ومعنى أو بمنزلة المتحدتين، وإما لأنه لا صلة بينهما في الصورة أو في المعنى.

وإما هنا فهو من الوصل، وهو عطف جملة على أخرى بالواو لصلة بينهما في الصورة والمعنى أو لدفع اللبس.

يوضح سيد قطب – رحمه الله – جمال بيان القرآن: استحضار المشهد بـ «وَإِذْ قَالَ»، ثم عرض صورة العذاب بصيغة المضارع «يَسُومُونَكُمْ... وَيُذَبِّحُونَ... وَيَسْتَحْيُونَ» لاستحضار الحركة والتصوير الحي الشنيع للظلم الفرعوني.

إشراقة بلاغية: التعبير بـ «بَلَاءٌ» يحتمل أمرين: إما البلاء بمعنى المحنة والشر في عذاب آل فرعون، أو البلاء بمعنى النعمة والإحسان العظيم في النجاة. والتعبير يحتمل المعنيين ليعظم المشهد في وجدانهم، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:36].

*﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، «تَأَذَّنَ»: على وزن «تَفَعَّلَ»، وتدل على الإعلام، أي أعلم وأعلن، المؤكد القاطع الشديد الذي لا رادّ له.

القسم والتوكيد: «لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»؛ اللام موطئة للقسم، واللام الثانية في أزيدنكم ونون التوكيد الثقيلة كلها أدوات تأكيد على سنة إلهية مضطردة: الشكر قيد النعم الموجودة وصيد النعم المفقودة.

---

1 - انظر الطبري: جامع البيان (ج16/ص523)، البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص618).

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: قامَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى تَورَّمَت قدَماه، فقيلَ له: غَفَرَ اللهُ لكَ ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تَأخَّرَ، قال: أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا [1].

لم يقل "ولئن كفرتم لأعذبنكم" في المقابل، بل قال: «إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ»، ليتطابق الوعد بالزيادة رحمةً بالمنطوق الصريح، بينما جاء الوعيد في العذاب بأسلوب الإشارة إلى شدة العذاب تعريضاً وتخويفاً دون تعجيل للعقوبة، لرحمةً سبحانه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلها كُتِبَت له حَسَنةً، ومَن هَمَّ بحَسَنةٍ فعَمِلَها كُتِبَت له عَشرًا إلى سَبع مِئةِ ضِعفٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلَم يَعمَلْها لَم تُكتَبْ، وإن عَمِلَها كُتِبَت [2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فمَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له عِندَه عَشرَ حَسَناتٍ، إلى سَبعِ مِائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له سَيِّئةً واحِدةً [3].

*﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: يقرر موسى عليه السلام ويبلغ حقيقة التوحيد الكبرى: طاعة العباد لا تنفع الله ومعصيتهم لا تضره.

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال اللهُ تعالَى: يا عبادي! إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُه مُحرَّمًا فلا تَظالموا، يا عبادي! إنَّكم تُخطِئون باللَّيلِ والنَّهارِ وأنا أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا ولا أُبالي فاستغفروني أغفِرْ لكم، يا عبادي! كلُّكم جائعٌ إلَّا من أطعمتُ فاستطعِموني أُطعِمْكم، يا عبادي! لم يبلُغْ ضُرُّكم أن تضُرُّوني ولم يبلُغْ نفعُكم أن تنفعوني، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمعوا وكانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكم لم يُنقِصْ ذلك من مُلكي مثقالَ ذرَّةٍ، ويا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني جميعًا فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ منهم مسألتَه لم يُنقِصْ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يُنقِصِ المَخيطُ إذا غُمِس في البحرِ، يا عبادي! إنَّما هي أعمالُكم تُرَدُّ إليكم، فمن وجد خيرًا فليحمَدْني ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلَّا نفسَه [4].

---

1 - أخرجه البخاري (4836)، ومسلم(2819)
2 - أخرجه مسلم(130)
3 - أخرجه البخاري (6491)، ومسلم(131)
4 - أخرجه مسلم (2577)، من أفراد البخاري على مسلم.

«جَمِيعًا» حال منصوب، وقيل: توكيد منصوب، للإحاطة والاستغراق، المقابلة بين كفر أهل الأرض كلهم وبين اسمين من أسماء الله: «غَنِيٌّ» عن عبادته وخلقه، «حَمِيدٌ» محمود في ذاته وصفاته وأفعاله ولو لم يحمده أحد من خلقه.

ومن أسمائه سبحانه (الصمد) التي يدور معناها حول: حول: السيد المقصود، الكامل، الذي تُقصد إليه الحوائج، تجمع بين بيان الاستغناء الإلهي والافتقار الكوني إليه سبحانه.

*﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾:

إشراقة بلاغية: قوله سبحانه: «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ»: هذه من أبلغ الصور البيانية والجمالية في القرآن، وللمفسرين فيها وجوه أسلوبية رائعة: أنهم عضّوا على أيديهم غيظاً وضيقاً بما جاءت به الرسل، وقيل: إنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل لإسكاتهم ومنعهم من الكلام، وقيل: بل إنهم وضعوا أيديهم على أفواه أنفسهم ضحكاً واستخفافاً ورداً للقول.

وفي كل الصور، هي حركة مقاومة مجسدة تعكس مدى الرفض النفسي الأعمى للحق.

أمّا وصف الشك بالمريب (أي الموقِع في الريبة والاضطراب) فذلك لتأكيد أن شكهم ليس شكاً عقلانياً بحثاً عن الحقيقة، بل شك إعراض وقلق وضياع واستكبار.

*﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

المحاكمة العقلية والإنكار الإستفهامي: «أَفِي اللَّهِ شَكٌّ»: استفهام إنكاري وبديعي؛ الفطرة السليمة والعقل الصريح يدفعان الشك في وجود الله ووحدانيته.

«فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»: الاستدلال بالخلق والإبداع؛ فالذي أبدع هذا الوجود لا يُشك فيه.

التلطف في الدعوة: «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم من ذنوبكم»؛ الله الغني العظيم لا يطلب منكم حظاً لنفسه، بل يدعوكم ليسقط عنكم أوزاركم ويدفع عنكم العذاب العاجل.

لاحظ كلمة (من ذنوبكم) أي: بعضها إلاّ في سورة الصف (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [الصف:12]، ذلك أنّ سورة الصف تتحدث عن الشهادة في سبيل الله، والشهيد يغفر له ذنبه مع أول قطرة من دمة، إلا الدين.

عن أبي قتادة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنَّه قامَ فيهم، فذَكَرَ لهم أنَّ الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ والإيمانَ باللهِ أفضَلُ الأعمالِ، فقامَ رَجُلٌ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أرَأيتَ إن قُتِلتُ في سَبيلِ اللهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطاياي؟ فقال له رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: نَعَم، إن قُتِلتَ في سَبيلِ اللهِ، وأنتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيرُ مُدبِرٍ، ثُمَّ قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كيفَ قُلتَ؟ قال: أرَأيتَ إن قُتِلتُ في سَبيلِ اللهِ، أتُكَفَّرُ عَنِّي خَطاياي؟ فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: نَعَم، وأنتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيرُ مُدبِرٍ، إلَّا الدَّينَ؛ فإنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ قال لي ذلك [1].

رد الكفار العقيم: قفزوا فوق الحجة العقائدية والعقلية، ولجؤوا إلى الشبهة التاريخية التقليدية: "البشرية" «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا»، و"التقليد الأعمى" «عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا».

*﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالنبوة والرسالة والحكمة، وفي هذا تعريض لقريش حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:7]

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

الأدب والتواضع النبوي: سلّم الرسل بشبهة أقوامهم أسلوباً (التسليم للخصم): نعم «إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» في الجسد والمباشرة، ولكن النبوة منّة إلهية وعطاء فريد لا يُقاس بالماديات «وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ».

التوكل: «وَمَا كَانَ لَنَا»: سلب القدرة الذاتية عن الرسل في إتيان المعجزات؛ فالآيات ليست اقتراحاً يُطلب فيُلبى، بل هي بيد القادر سبحانه «إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

تقديم الجار والمجرور «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» يفيد الحصر والقصر؛ أي لا اعتماد ولا ملجأ إلا على الله وحده.

*﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

والتوكل هو صدق الاعتماد القلبي على الله مع الأخذ بالأسباب وعدم الاعتماد عليها، مع كثرة الدعاء والتضرع له سبحانه.

التدبر النفسي والإيماني: الرسل هنا يعلنون الثبات العظيم: ما الذي يمنعنا من التوكل وهو الذي هدانا للسبل الحق؟ فالهداية هي الموجب الأكبر للتوكل الثابت.

---

1 - أخرجه مسلم (1885) من أفراد مسلم على البخاري.

«وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا»: استخدام نون التوكيد الثقيلة واللام في الفعل، يوضح القرار الجازم بالصبر على الأذى المادي والمعنوي، دون تراجع أو مساومة.

*﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾:

أسلوب الطغيان والإجابة الإلهية الحاسمة: عندما أفلست حجة الكفار العقلية، انتقلوا إلى منطق القوة والغشم: الإخراج أو التشريد «لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا».

انظر إلى نسبة الأرض لأنفسهم «أَرْضِنَا»، وكأنهم يملكون الوجود! فكان التعقيب الفوري بالحسم الإلهي: «فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ»؛ جاء الفاء للدلالة على السرعة والتعقيب، واستخدام نون التوكيد في «لَنُهْلِكَنَّ» يمسح استعلاء الباطل بكلمة واحدة.

*﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾: السنة التاريخية والوعد الرباني: تمكين المؤمنين واستخلافهم سنة حتمية، لكنها مشروطة بشرط إيماني وجداني: «ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ».

«مَقَامِي»: أي خشية القيام بين يدي الله للحساب، أو مراقبة قيام الله على كل نفس بما كسبت. الخوف المؤسس على التعظيم هو الذي يصنع الرجال الذين يستحقون وراثة الأرض.

قال سبحانه في سورة الحج: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:41].

*﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: {وَاسْتَفْتَحُوا} أَيِ: اسْتَنْصَرُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْأُمَمَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ صَادِقِينَ فَعَذِّبْنَا، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (الْأَنْفَالِ -32) .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: وَاسْتَفْتَحُوا يَعْنِي الرُّسُلَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا يَئِسُوا مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمُ اسْتَنْصَرُوا اللَّهَ وَدَعَوْا عَلَى قَوْمِهِمْ بِالْعَذَابِ كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نُوحٍ:26] وَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [يُونُسَ:88] .

{وَخَابَ} خَسِرَ. وَقِيلَ: هَلَكَ، {كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} وَالْجَبَّارُ: الَّذِي لَا يَرَى فَوْقَهُ أَحَدًا. وَالْجَبْرِيَّةُ: طَلَبُ الْعُلُوِّ بِمَا لَا غَايَةَ وَرَاءَهُ، وَهَذَا الْوَصْفُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقِيلَ: الْجَبَّارُ: الَّذِي يُجْبِرُ الْخَلْقَ عَلَى مُرَادِهِ، وَالْعَنِيدُ: الْمُعَانِدُ لِلْحَقِّ وَمُجَانِبُهُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: هُوَ الْمُعْرِضُ عَنِ الْحَقِّ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ الْمُتَكَبِّرُ [1].

*﴿مِّن وِرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ، يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وِرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾

هكذا ينتقل المشهد في ومضة عين من الدنيا إلى صدمة عذاب الآخرة لهذا الجبار العنيد:

«مِّن وِرَائِهِ جَهَنَّمُ»: الوراء هنا بمعنى ما يستقبله وينتظره أَمامَه حتماً، التفصيل المشهدي للحس والذوق: «مَّاءٍ صَدِيدٍ»: قيء وجراح وقيح يتغذى عليه.

«يَتَجَرَّعُهُ»: حركات متقطعة مؤلمة يحاول جرعة جرعة بلعه لكرهه وقذارته.

«وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ»: الشدة البالغة في الامتناع والتقزز.

«وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ»: أسباب الموت تحيط به من كل خَلِيَّة وزاوية وركن، «وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ»، فيستريح؛ لأن الآجل ممتد والمعاناة سرمدية (لا موت فيستريح، ولا حياة فيحيى).

«عَذَابٌ غَلِيظٌ»: وصف العذاب بالغلظة متناسب مع غلظة كبره وعناده في الدنيا.

*﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

هذا ضرب مَثَلٍ يُعدُّ من أروع وأدق أمثال القرآن في تصوير هباء أعمال الكفار.

عناصر التشبيه المركّب: الأعمال: كرماد (مادة هشة، محترقة، بلا وزن ولا قيمة).

الزمان: يوم عاصف (ليس يوماً هادئاً، بل شديد الريح والاضطراب)، الحدث: «اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ»؛ هبوب عاصفة تفرق هذا الرماد وتطيره في كل اتجاه.

النتيجة: «لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ»؛ التلاشي المطلق! يظنون أنهم عملوا خيراً أو بنوا أمجاداً في الدنيا، فإذا جاءت القيامة طارت كل هذه الأعمال كرماد ذروته الرياح في يوم عصوف، فلا يجدون منه قبضة يد.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص619).

الختام: «ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ»؛ التائه البعيد الذي ضيع سعي عمره، ثم انتهى بلا شيء!

خلاصة هذا الدرس: تبدأ الآيات بـ الغاية العظمى للقرآن والرسالات (الإخراج من الظلمات إلى النور)، وتستعرض التدافع البشري وطبيعة الجاهلية المعاندة، ثم تتنزل في مشهد مواجهة الرسل لأقوامهم، حتى تنتهي بالصورة المأساوية المروعة لعاقبة الجبابرة في الآخرة وهباء أعمالهم كرماد تذروه الرياح.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19)وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (21) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (26) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(33) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ((34)

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة إبراهيم مقطعٌ شاملٌ يتناول عقائد الإيمان، ومشاهد القيامة الحية، والموازنات البيانية العميقة بين الحق والباطل، والكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، وعظم نعم الله عز وجل على عباده.

*﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ﴾، الرؤية هنا بصرية وعقلية: افتتحت الآية بالاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وهو متضمن لمعنى اليقين؛ إذ ينزل العلم اليقيني الدقيق منزلة الرؤية بالبصر. والخطاب للنبي ﷺ والمراد به عموم المكلفين.

(بالحق) أي: لم يخلقهما باطلاً، وإنما خلقهما لأمر عظيم، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم أطوع لله منكم.

قُيّدت عملية الخلق بـ ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي ملابسةً للحق والعدل والغاية الحكيمة، وليست سدىً ولا عبثاً. وجاءت الباء للملابسة؛ لتبين أنّ الحق هو قانون الوجود الداعم للكون.

الشرط والتخويف الأسلوبي: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ معلّق بمشيئة الله القادرة المطلقة. وفيه إيجاز بالحذف والإشارة إلى كمال غنى الرب وسرعة إهلاك المعاندين واستبدالهم بمن يطيعه.

*﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، الدلالة اللغوية والأسلوبية: (العزيز) هنا بمعنى: الممتنع أو الصعب الشاق. والدخول بـ "الباء" النافية في خبر (ما) المشبهة بليس ﴿بِعَزِيزٍ﴾ يفيد توكيد النفي مطلقاً.

البُعد السياقي: تؤكد الآية أن إذهاب البشرية والإتيان بخلق جديد ليس بعسير ولا متعذر على قدرة الله جل وتعالى المطلقة التي تقول للشيء "كن فيكون".

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾:

الفعل الماضي ﴿وَبَرَزُوا﴾ يعبّر عن تحقق وقوع يوم القيامة كأنه وقع وانتهى، وهو أسلوب قرآني يعطي ثباتاً ويقيناً للمشهد.

الدلالة اللغوية لـ ﴿بَرَزُوا﴾: البروز هو الظهور، أي خرجوا من قبورهم إلى الله ، وظهروا جميعاً الأرض الفضاء بعد الخفاء؛ حيث تزول السرائر والحجب والسواتر، فيقف الجميع صاغرين أمام الجبار.

في حديث الشفاعة عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: يقومُ النَّاسُ لربِّ العالَمينَ فيُسمِعُهم الدَّاعي وينفُذُهم البصَرُ[1].

---

1 - أخرجه البخاري (3340)، ومسلم (194)، وأحمد (9623)، وابن أبي الدنيا في ((الأهوال)) (154) بنحوه.

هنالك يأتي هذا الحوار حساماً بين الأتباع والمتبوعين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: التعبير بالمصدر (تَبَعاً) للإشارة إلى كمال الانقياد والتبعية المطلقة في الدنيا.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: استفهام استعطافي استغاثي، وتنكير (شَيْءٍ) مع استغراق (مِن) النكرة يفيد طلب أيسر وأقل قدر من دفع العذاب.

رد المستكبرين: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾: تنصل وإسقاط للمسؤولية بأعذار واهية، ثم تسليم بالواقع المظلم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾. و(المحيص): المهرب والمفر، والتعبير يقطع كل أمل في النجاة.

[خطبة إبليس] *﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ...﴾ هذه الآية تُعدّ من أعظم مشاهد التبرؤ والخذلان في القرآن الكريم (خطبة إبليس في النار):

السياق والتوقيت: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي بعد أن فصل الله بين العباد، وتم تمييز أهل الجنة من أهل النار.

المقابلة والبديع: قارن إبليس بين وعدين: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾؛ مقابلة بين الحق الصادق الثابت، والباطل والغرور والتخلي.

سلب السلطان والتنصل: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾: استثناء منقطع؛ يفيد أنه لم يملك سلطة قهرية ولا حجة عقلية، بل مجرد وسوسة وتزيين، واللوم يقع على العبد الذي ألغى عقله واتبعه.

توجيه التهمة والتنديم: ﴿فَلَا تلومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾: استخدام صيغة النهي ثم الأمر للتثبيط والحسرة.

التخلّي التام: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾: والصريخ هو المغيث عند الشدة؛ أي لا أستطيع إغاثتكم ولا تستطيعون إغاثتي.

إعلان الكفر والختام: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾: يتبرأ من عبادتهم وطاعتهم له في الدنيا.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ...﴾، المقابلة السياقية: بعد عرض مشاهد أهل النار وحواراتهم وخطبة إبليس المحزنة، ينتقل السياق مباشرة على طريقة القرآن في (المثاني) لذكر مآل الأبرار لتنسجم الصورة وتكتمل المقابلة.

البناء لما لم يسم فاعله والتكريم: ﴿وَأُدْخِلَ﴾ بني الفعل لما لم يسمّ فاعله للتعظيم؛ فالمدخِل هو الله جل جلاله بـ ﴿إِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

التحية والسلام: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: جملة اسمية تدل على الدوام والاستقرار، والسلام يشمل سلامة الأبدان والأنفس، وسلام الله وملائكته عليهم.

مَثَلُ الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة وتأثيرهما: تُعدّ هذه الآيات ذروة البيانيات القرآنية في التصوير والمشاهدة والتأثير النفسي:

*﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾

التشبيه والمشهدية: شُبّهت "الكلمة الطيبة" (وهي كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" وكل قول وفعل صالح) بشجرة طيبة.

الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أنّ الشجرة لا تكون إلاّ بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلاّ بثلاثة أشياء: تصديق وعمل القلب، وقول وعمل باللسان وعمل بالأركان (الأبدان) [1].

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنخلة: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ من الشجرةِ شجرةً لا يَسقطُ ورقُها، وهي مثلُ المؤمنِ، حدِّثوني ما هيَ؟ قال عبدُ اللهِ: فوقعَ الناسُ في شجرِ البوادي، ووقع في نفسي أنَّها النَّخلةُ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: هي النخلةُ. فاستحييتُ يعني أن أقولَ. قال عبدُ اللهِ: فحدَّثتُ عمرَ بالذي وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا [2].

أمّا الشجرة الطيبة هنا تميزت بصفات ثلاث: الرسوخ والاستقرار: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾: جذورها ممتدة في أعماق الأرض (كالإيمان في قلب المؤمن).

والعلو والرفعة: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾: تتسامى نحو السماء، فلا تطالها الأقذار، وتستقبل أسباب الحياة من الغيث والنور.

النفع المستمر: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: العطاء المتجدد غير المنقطع، فالعمل الصالح صاعد إلى الله في كل وقت.

بينما تميزت الشجرة الخبيثة بميزتين: *﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾

الكفر والباطل وكل كلام خبيث يشبه شجرة خبيثة، قيل: كالحنظل: ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: فهي خبيثة، وهي ليست ثابتة في العمق، بل عروقها قريبة جداً من السطح،

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص622).

2 - أخرجه الترمذي (2867) واللفظ له، وأخرجه البخاري (61)، ومسلم (2811) باختلاف يسير

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: لا ثبات لها ولا استقرار أمام أدنَى عاصفة من الحق، والاجتثاث هو اقتلاع الشيء من جذوره.

النتيجة: *﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾

فالتثبيت إلهي:

القول الثابت هو كلمة التوحيد واليقين. والتثبيت يكون في الدنيا بالهداية والاستقامة والصبر على البلاء وعند الموت، وانظر حديث البراء في أسباب النزول أنّ هذه الآية نزلت في عذاب القبر.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُكثرُ أن يقولَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبِي على دينِك فقلت يا نبيَّ اللهِ آمنَّا بك وبما جئتَ به فهل تخافُ علينا؟ قال نعم إن القلوبَ بينَ إصبعينِ من أصابعِ اللهِ يُقلِّبُها كيفَ يشاءُ[1].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كان آخرُ كلامهِ لا إلهَ إلَّا اللهُ دخل الجنَّةَ [2].

وفي الآخرة عند سؤال الملكين في القبر: عن البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وذكَر قَبْضَ رُوح المُؤمِنِ فقال: يأتيه آتٍ، يعني في قَبْرِه، فيقولُ: مَن رَبُّكَ؟ وما دِينُكَ؟ ومَن نَبيُّكَ؟ فيقولُ: ربِّيَ اللهُ، ودِيني الإسلامُ، ونَبِيِّي مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم, قال: فيَنْتَهِرُه فيقولُ: ما رَبُّكَ؟ وما دِينُكَ؟ وهي آخِرُ فِتنةٍ تُعرَضُ على المُؤمِنِ، فذلكَ حيثُ يقولُ اللهُ: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: 27]، فيقولُ: ربِّيَ اللهُ، ودِيني الإسلامُ، ونَبِيِّي مُحمَّدٌ، فيُقالُ له: صدَقْتَ. [3].

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: كانَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ ، إذا فرغَ مِن دفنِ الميِّتِ وقفَ علَيهِ ، فقالَ : استغفِروا لأخيكُم ، وسَلوا لَهُ التَّثبيتَ ، فإنَّهُ الآنَ يُسأَلُ[4].

---

1 - أخرجه الترمذي (2140)، وأحمد (13696) باختلاف يسير، وابن ماجه (3834) بنحوه، وصدر الدين المناوي في كشف المناهج والتناقيح (ج1/ص112)، ورجاله رجال مسلم في الصحيح.

2 - أخرجه أبو داود (3116) واللفظ له، وأحمد (22034) .

3 - أخرجه البخاري (1369)، ومسلم (2871)، والترمذي (3120)، والنسائي (2057)، وابن ماجه (4269)، وأحمد (18575) مختصراً، وأبو داود (4753) مطولاً.

4 - أخرجه أبو داود (3221) واللفظ له، والبزار (445)، وابن السني في ((عمل اليوم والليلة)) (585). وصحح الألباني إسناده.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: فإذا أنا مُتُّ فلا تَصحَبني نائِحةٌ ولا نارٌ، فإذا دَفَنتُموني فشُنُّوا عليَّ التُّرابَ شَنًّا، ثُمَّ أقيموا حَولَ قَبري قدرَ ما تُنحَرُ جَزورٌ ويُقسَمُ لَحمُها، حتَّى أستَأنِسَ بكُم، وأنظُرَ ماذا أُراجِعُ به رُسُلَ رَبِّي[1].

وفي المحشر: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سَبعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ يَومَ القيامةِ في ظِلِّه يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نَشَأ في عِبادةِ اللهِ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ في خَلاءٍ ففاضَت عَيناه، ورَجُلٌ قَلبُه مُعَلَّقٌ في المَسجِدِ، ورَجُلانِ تَحابَّا في اللهِ، ورَجُلٌ دَعَتْه امرَأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ إلى نَفسِها، قال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقةٍ فأخفاها حتَّى لا تَعلَمَ شِمالُه ما صَنَعَت يَمينُه. [2].

المقابلة بالضلال: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾: أضلهم بسبب ظلمهم واختيارهم الشجرة الخبيثة والكلمة الخبيثة (الكفر والنفاق)، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]، فلا يهدي المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر، ولا تثبيت لهم قبل الموت ولا بعده.

الختام بالتفويض: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: من التوفيق والخذلان، والتثبيت وترك التثبيت؛ يوفق من يشاء بحكمته ورحمته وفضله، ويضل من يشاء بعلمه وعدله، ولا شيء يخرج عن مشيئته سبحانه.

جحود النعمة ومصير المستكبرين: *﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾

الإنكار والتعجيب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا...﴾ تعجيب من حال كفار قريش والمكذبين الذين أتاهم الله نعمة البعثة والمكانة، فاستبدلوا بالكفر مكان الشكر.

﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾: البوار هو الهلاك الشامل والتلف الذي لا تدارك له، وبُيّن هذا الدار في الآية التالية بـ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾.

المشاكلة والمقابلة في "القرار": قال في الكلمة الخبيثة: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، وهنا قال في جهنم: ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾؛ أي بئس المستقر والمنزل.

التهديد والتهكم الأسلوبي: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾: أمر بالتمتع بصيغة التهديد والوعيد (كقوله: اعملوا ما شئتم)، فالمتاع قليل ولحظي والمصير محتوم.

---

1 - أخرجه مسلم(121) وابن خزيمة (2515)، وابن الحداد في ((جامع الصحيحين)) (3919)، والبيهقي (18241) باختلاف يسير.

2 - أخرجه البخاري (6806)، ومسلم(1031) .

وسائل الثبات والمعينات عليه*﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾

الإضافة للتكريم: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾: إضافة العباد إلى ياء المتكلم إضافة تشريف وتكريم وتودد.

الأمر المباشر بالتكاليف: المقصود: قل لهم: أقيموا الصلاة وأنفقوا، وجاء جزم ﴿يُقِيمُوا﴾ في جواب أمر مقدر، إشارة إلى سرعة امتثالهم ورغبتهم في الطاعة.

الجمع بين السر والعلانية: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: لإفادة الشمول؛ السر للإخلاص والعلانية للاقتداء والقدوة.

التزهيد في الدنيا والتذكير باليوم الآخر: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾: اليوم الآخر لا ينفع فيه فداء مالي (بيع) ولا شفاعة مصادقة وصداقة دنيوية (خلال)، فالمعيار الوحيد هو العمل الصالح.

دلائل القدرة والنعمة المسبغة على الإنسان: تُختتم الآيات باستعراض مشهد كوني مهيب يفيض بالنعم الإلهية المسخرة للبشرية:

*﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(33) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ(34) ﴾:

التسخير الكوني: عدد القرآن مظاهر التسخير: خلق السماوات والأرض وإتزانهما.

إنزال الماء وإخراج الثمرات رِزقاً، تسخير الفلك (السطح المائي) والأنهار (الماء العذب).

تسخير الشمس والقمر ﴿دَائِبَيْنِ﴾ (أي مستمرين في حركتهما ودورانهما لا يفتران)، تسخير الليل والنهار.

الشمول والفيض: *﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: أي أعطاكم من جميع أسباب ما تحتاجونه وتطلبونه بحسب المصلحة.

العجز البشري أمام النعم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾: أي: لا تطيقون عدها ولا القيام بشكرها، أُفردت كلمة ﴿نِعْمَتَ﴾ وجاءت مضافة لتفيد العموم؛ أي جنس النعمة.

ونفي الإحصاء ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ أبلغ من نفي العد؛ لأن الإحصاء هو ضبط العدد وحصره بالدقة. فإذا كان ضبط العدد متعذراً، فكيف بشكرها؟

الختام بالتشخيص النفسي للإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾: صيغ مبالغة: (ظَلُوم) كثير الظلم لنفسه بتقصيره في الشكر، و(كَفَّار) كثير الجحود والإنكار لنعم ربه العظيمة، إلاّ من عصم الله بالإيمان والعمل الصالح.

الخلاصة: ينتقل النص في وحدة موضوعية بليغة من إثبات القدرة الإلهية والتخويف بالاستبدال، إلى تجسيد مشاهد الحساب والتبرؤ، ثم يضرب الأمثال المائية والنباتية لتأكيد ثبات الحق وزوال الباطل، ليعود في النهاية إلى ذكر نعم الله الكونية التي تستوجب الصلاة والإنفاق والتوحيد.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41) وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (44) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48)وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ(52))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس هي ختام سورة إبراهيم، وهي ملحمة بيانية بين دعاء «خليل الرحمن» ومصير «الظالمين»، تتجاور فيها الطمأنينة الإيمانية القلبية والدعاء مع عظم المطلب لهول الموقف العظيم يوم القيامة.

*﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: تبدأ الآية بظرف الزمان ﴿وَإِذْ﴾ المقدر بـ "واذكر إذ"، وهو أسلوب لاستحضار مشهد تاريخي مفصلي. جاء النداء بحذف حرف النداء ﴿رَبِّ﴾ للدلالة على القرب والولاء والاضطرار.

إشراقة بلاغية: قدم طلب الأمن ﴿اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ على الأرزاق؛ لأن الأمن شرط قيام الحضارة والعبادة والطمأنينة.

الفعل ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أبلغ في البيان من "جنّبني"؛ فالجنب يعني المباعدة الشديدة، أي: اجعلني وبنيّ في جانب والأصنام في جانب آخر لا نلتقي بهما أبداً.

ينبّه إبراهيم الخليل -وهو كاسر الأصنام بيده- على أنه لا يأمن البلاء على نفسه، فطلب الوقاية الإلهية. قال إبراهيم التيمي: "ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟".

*﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

إشراقة بلاغية: إسناد الإضلال للأصنام ﴿أَضْلَلْنَ﴾: إسناد مجازي؛ لأنها كانت سبباً ومثاراً للفتنة والضلال.

النسبة والتبرؤ ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾: استخدم الحرف ﴿مِنِّي﴾ لبيان شدة الالتحام الروحي والمنهجي بين النبي والمؤمن، فالرابطة رابطة عقيدة لا نسب.

الأدب مع الله ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: لم يقل "فعذّبه"، بل وكل أمرهم إلى مغفرة الله ورحمته، تفويضاً للمشيئة ورجاءً للهداية (وهو الأدب الذي احتذاه عيسى عليه السلام في سورة المائدة)، وقال السدي: ومن عصاني ثم تاب.

يثير البغوي هنا تساؤلا: فَإِنْ قِيلَ: قَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْصُومًا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ السُّؤَالُ؟ وَقَدْ عَبَدَ كَثِيرٌ مِنْ بَنِيهِ الْأَصْنَامَ فَأَيْنَ الْإِجَابَةُ؟

قِيلَ: الدُّعَاءُ فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِزِيَادَةِ الْعِصْمَةِ وَالتَّثْبِيتِ، وَأَمَّا دُعَاؤُهُ لِبَنِيهِ: فَأَرَادَ بَنِيهِ مِنْ صُلْبِهِ، وَلَمْ يَعْبُدْ مِنْهُمْ أَحَدٌ الصَّنَمَ.

وَقِيلَ: إِنَّ دُعَاءَهُ لِمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا مِنْ بَنِيهِ. قلت: وهو عموما قريب من معنى قوله تعالى (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) [البقرة:124].

*﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

تكرار النداء ﴿رَّبَّنَا﴾ مرتين يبث الضراعة، ويتحول الخطاب من الفردية ﴿رَبِّ﴾ إلى الجماعية والمسؤولية الأسرية والتربوية ﴿رَّبَّنَا﴾.

إشراقة بلاغية: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: نفي وصف الطبيعة بالنبات صراحةً لإبراز الانقطاع التام عن الأسباب المادية.

﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾: العلة والإيواء؛ تركهم بلا أسباب مادية لكنه ربطهم بأقوى الأسباب الإلهية.

﴿فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: لم يقل "الأفئدة" للتبعيض (لو قال الأفئدة لازدحمت مكة بالناس ولم تسعهم)، والفعل ﴿تَهْوِي﴾ يتضمن أرق معاني الشوق والاندفاع الخفيف والسريع كأن القلوب تطير وتسقط حبّاً وشوقاً إلى هذا المكان.

يبرز سيد قطب في هذه الآية تجرد إبراهيم الكامل؛ يسكن ذرية في الصحراء القاحلة لغاية واحدة وواضحة: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، فالهدف هو إقامة العقيدة وليس مجرد البقاء الحيوي.

عن ابن عباس رضي الله عنه: لَمَّا كان بينَ إبراهيمَ وبينَ أهلِه ما كانَ خَرَجَ بإسماعيلَ وأُمِّ إسماعيلَ، ومعهُم شَنَّةٌ فيها ماءٌ، فجَعَلَت أُمُّ إسماعيلَ تَشرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، فيَدِرُّ لَبَنُها على صَبيِّها، حتَّى قدِمَ مَكَّةَ فوضَعَها تَحتَ دَوحةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إبراهيمُ إلى أهلِه، فاتَّبَعَتْه أُمُّ إسماعيلَ، حتَّى لَمَّا بَلَغوا كَداءً نادَتْه مِن ورائِه: يا إبراهيمُ إلى مَن تَترُكُنا؟ قال: إلى اللهِ، قالت: رَضيتُ باللهِ، قال: فرَجَعَت فجَعَلَت تَشرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ ويَدِرُّ لَبَنُها على صَبيِّها، حتَّى لَمَّا فنيَ الماءُ، قالت: لو ذَهَبتُ فنَظَرتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أحَدًا، قال فذَهَبَت فصَعِدَتِ الصَّفا فنَظَرَت، ونَظَرَت هل تُحِسُّ أحَدًا، فلَم تُحِسَّ أحَدًا، فلَمَّا بَلَغَتِ الواديَ سَعَت وأتَتِ المَروةَ، ففَعَلَت ذلك أشواطًا، ثُمَّ قالت: لو ذَهَبتُ فنَظَرتُ ما فعَلَ، تَعني الصَّبيَّ، فذَهَبَت فنَظَرَت فإذا هو على حالِه كَأنَّه يَنشَغُ للمَوتِ، فلَم تُقِرَّها نَفسُها، فقالت: لو ذَهَبتُ فنَظَرتُ، لَعَلِّي أُحِسُّ أحَدًا، فذَهَبَت فصَعِدَتِ الصَّفا، فنَظَرَت ونَظَرَت فلَم تُحِسَّ أحَدًا، حتَّى أتَمَّت سَبعًا، ثُمَّ قالت: لو ذَهَبتُ فنَظَرتُ ما فعَلَ، فإذا هي بصَوتٍ، فقالت: أغِثْ إن كان عِندَكَ خَيرٌ، فإذا جِبريلُ، قال: فقال بعَقِبِه هَكَذا، وغَمَزَ عَقِبَه على الأرضِ، قال: فانبَثَقَ الماءُ، فدَهَشَت أُمُّ إسماعيلَ، فجَعَلَت تَحفِزُ، قال: فقال أبو القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو تَرَكَتْه كان الماءُ ظاهِرًا. قال: فجَعَلَت تَشرَبُ مِنَ الماءِ ويَدِرُّ لَبَنُها على صَبيِّها، قال: فمَرَّ ناسٌ مِن جُرهُمَ ببَطنِ الوادي، فإذا هُم بطَيرٍ، كَأنَّهم أنكَروا ذاكَ، وقالوا: ما يَكونُ الطَّيرُ إلَّا على ماءٍ، فبَعَثوا رَسولَهم فنَظَرَ فإذا هُم بالماءِ، فأتاهم فأخبَرَهم، فأتَوا إليها فقالوا: يا أُمَّ إسماعيلَ، أتَأذَنينَ لَنا أن نَكونَ معكِ، أو نَسكُنَ معكِ، فبَلَغَ ابنُها فنَكَحَ فيهمُ امرَأةً [1].

*﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

إشراقة بلاغية: تقديم "ما نخفي" على "ما نعلن"؛ لأن الأساس عند الله هو مكنونات الصدور وخفايا القلوب.

1 - أخرجه البخاري (3365)، من أفراد البخاري على مسلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إِنَّ اللهَ تعالى لَا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ، ولكنْ إنَّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم [1].

وفي دعاء نبي الله إبراهيم عليه السلام استسلام وتفويض تام للإحاطة الإلهية. يعلم الله ما يخفيه إبراهيم من لوعة الفراق ولوعة حزن الأب على إبعاد طفله وأمه، وما يعلنه من الدعاء والابتهال.

*﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

إشراقة بلاغية: ﴿وَهَبَ﴾: التعبير بالهبة يدل على الموهبة الخالصة التي لا تدخل فيها للأسباب العادية.

﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾: التعبير بـ "على" يفيد الاستعلاء والظرفية الشديدة (أي رغم حال الشيخوخة المانعة عادةً من الولد).

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: تعليل للحمد بتأكيد بليغ (إنّ واللام) بصفة إجابة الدعاء.

*﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾: لم يقل "أصلي"، بل ﴿مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، والإقامة هي إتمام أركانها وخشوعها واستمراريتها وآثارها في سلوك الحياة.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾: يُظهر واقعية إبراهيم عليه السلام وعلمه بحكمة الله في أن الابتلاء والمشيئة تقتضي ألا يتفق جميع الأبناء على الهدى. وهل (من) هنا تبعيضية أم أنّ الكلام فيها كالكلام في قوله تعالى (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران:104]،، قيل المراد كونوا كلم، كل فرد منكم.

قال الشيخ الددو حفظه الله: (من) ممكن أن تكون تبعيضية وممكن أن تكون بيانية أي كونوا أمة، واجعل ذريتي يقيمون الصلاة، وعلى تقدير أنها تبعيضية تكون في سورة آل عمران مع يقع عليه الواجب لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات.

أما (ومن ذريتي)، فقيل: تبعيضية كذلك، أي: اجعل من ذريتي من يقيمون الصلاة، وربما يقال: إنّ معناها قريب مما في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:124] فالعادة أنّ إبراهيم يدعو لكل ذريته، ولذا استثنى الله الظالمين هنا، والله أعلم.

---

1 - أخرجه مسلم (2564)، وابن ماجة (4143)، وأحمد (7827) واللفظ لهم.

*﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، الارتقاء في الدعاء: توسع الدائرة من الذات ﴿لِي﴾ إلى الوالدين ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ إلى أمة المؤمنين جميعاً ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، لتكون دعوة جامعة لكل زمان ومكان.

إشراقة بلاغية: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ تجسيد مجازي لليوم؛ كأن الحساب شخصٌ قائمٌ شخيصٌ حاضِرٌ يواجه الناس.

ويثير الإمام البغوي رحمه الله تساؤلاً آخر: فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين؟ قيل: قد قيل إنّ أمه أسلمت، وقيل: أراد إن أسلما وتابا. والله أعلم [1].

*﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾

انتقال مفاجئ ومروع من عالم الطمأنينة ودعوات إبراهيم إلى مشهد الحساب والعقاب للظالمين، لإحداث التباين النفسي (التقابل الأسلوبي).

إشراقة بلاغية: الخطاب للنبي ﷺ وللأمة، والنهي موجه بـ "النون المشددة" ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ لتأكيد النفي القطعي.

﴿يؤخرهم ليومٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾: تصوير متلق ومتحرك؛ الشخوص هو فتح العين بجمود واستغراق من هول ما ترى فلا ترمش ولا تتحرك.

فيها تسلية المظلومين وتهديد الظالمين، وأنّ الإمهال الإلهي ليس إهمالاً بل استدراج وتأخير لوقت جليل محدد.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتَ اللهَ تعالى يُعطي العبدَ من الدنيا ما يُحبُّ، و هو مقيمٌ على معاصِيه؛ فإنَّما ذلك منه استدراجٌ[2].

*﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾: مشهد بياني أسلوبي (متحرك):

﴿مُهْطِعِينَ﴾: المسرعين بإذلال ورقاب ممتدة ونظرات مذعورة، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: رافعي رؤوسهم في استسلام وذهول، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: لا تطرف أعينهم ولا ترمش من شدة الذهول والاندهاش.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص628).
2 - أخرجه الروياني (261)، والخرائطي في ((فضيلة الشكر)) (70)، وابن قانع في ((معجم الصحابة)) (2/ 272) باختلاف يسير، وصحح الألباني إسناده في الجامع الصحيح (561).

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾: تشبيه بليغ ومجاز بديع؛ خلت قلوبهم من العقول والأفكار والمشاعر وأصبحت فارغة تماماً كالهواء من شدة الرعب.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾

يتوسلون بلسان الخضوع: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، ويعدون بالطاعة ﴿نُّجِبْ دعوتك وَنَتَّبِعِ الرسل﴾.

فيأتي الرد والتقريع والتوبيخ على غرورهم السابق: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

*﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾

إقامة الحجة عليهم؛ حللتم في ديار من سبقوكم ممن أهلكهم الله وشاهدتم آثارهم، وضربت لكم العبر والأمثال فلم تتعظوا ولم تعتبروا بغيركم.

*﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: إشراقة بلاغية: ﴿مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾: التنكير في "مكراً" والإضافة في "مكرهم" تعظيم وتجسيم لشدة تدبيرهم وخبثهم.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: هنا ما يطلق عله البلاغيون: (استعارة تمثيلية) لبيان عظم هذا المكر وقوته في كاد العقيدة والرسل، لكنه مضمحل وضئيل أمام قدرة الله ومكره بهم.

*﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾: إشراقة بلاغية:

قدم مفعول المصدر الثاني ﴿وَعْدِهِ﴾ وقدم اسم المفعول ليؤكد أن الموعود به حتمي الوقوع.

ثم كان تذييل الآية باسمين من أسماء الله الحسنى وصفاته: ﴿عَزِيزٌ﴾ (غالب لا يغلب) ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ (من الظالمين للرسل والمؤمنين).

*﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾: قيل:

تبديل معالم العالم المادي (إنهاء للنواميس الكونية المعتادة).

عن ثوبان رضي الله عنه أن يهوديا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أين يكونُ النَّاسُ حين تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّمواتُ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هم في الظُّلمةِ دونَ الجِسْرِ[1]..

وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: " سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ، فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ ؟ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: عَلَى الصِّرَاطِ[2].

وقد حدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عَفْرَاءَ، كقُرْصَةِ النَّقِيِّ ، ليس فيها مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ[3].

﴿وَبَرَزُوا﴾: خروج الخلق جميعاً من القبور بلا سواتر ولا حجب، بروز ذليل صاغر أمام صفة الذات الإلهية المطلقة: ﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

*﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾: الخطاب موجه للرائي ﴿وَتَرَى﴾ لتمثيل المشهد واستحضاره حياً.

﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾: مصفدين ومقرنين كل كافر مع قرينه من الشياطين أو العصاة في قيود وسلاسل واحدة.

*﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾: ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: قمصانهم ودروعهم، ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾: مادة شديدة الاشتعال كريهة الرائحة أسودت ألوانها.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾: تخصيص الوجوه بالغشيان والتغطية لأنها أعز ما في الإنسان ومجمع كرامته.

*﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: العلة الكبرى من هذا الهول والحشر هي إقامة العدل الإلهي؛ فكل نفس تُجزي بعملها دون ظلم ولا تأخير ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

*﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: ﴿هَذَا﴾ أَيْ: هَذَا الْقُرْآنُ، ﴿بَلَاغٌ﴾ أَيْ: تَبْلِيغٌ وَعِظَةٌ، ﴿لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا﴾ وَلِيُخَوَّفُوا، ﴿بِهِ

---

1 - أخرجه مسلم (315)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (9025) بلفظه.

2 - أخرجه مسلم (2791).

3 - أخرجه أبو يعلى (7549) واللفظ له، وأخرجه البخاري (6521)، ومسلم (2790) باختلاف يسير.

وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أَيْ: لِيَسْتَدِلُّوا بِهَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ: لِيَتَّعِظَ أُولُو الْعُقُولِ.

هكذا جاءت الآية الأخيرة لتلخص أهداف القرآن ومقاصده الأربعة الكبرى:

التعميم والإبلاغ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾، الإنذار والتخويف: ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾، التوحيد والعلم بالعقيدة: ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، التدبر وإعمال العقل: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.